
محمود شلبي
حياة أيوب
دار الجيل
بيروت - لبنان

حيـــاة أيوب

محمود شلبي

حياة أيوب

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعـــة الثالثة
١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م

الاهـــداء

اللــــهم . . . منــــك . . . وإليـــك

عمرو شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدِّمَة

سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وبعد . . .

يختلف « حياة أيوب » عن أخواته السابقات ... « حياة آدم » أو « حياة ابراهيم » أو « حياة يوسف » أو « حياة داوود » أو « حياة سليمان » أو غيرها من حياة الأنبياء ...

ذلك أن أولئك جميعاً ... في حياتهم من الوقائع والأحداث التاريخية ... ما يجعل الكتابة عنهم غنية بالحركة ... مليئة بالقصص الحق ...

أما « حياة أيوب » فإنها في المقام الأول ... حياة فرد وتجربة إنسان .

وليست حياة شخصية عامة تولت الحكم بين الناس ... كداوود وسليمان...

ولكن أيوب ... عليه السلام ... لم يبعث برسالة إلى أمة ... ولم يحكم بشريعة سماوية في دولة ...

وإنما هو فرد ... جعله الله موضع تجربة فذّة ... لينظر ماذا يكون منه؟!

وتجربة أيوب ... على الغاية من الخطورة ...

ذلك ان الإنسان ... كل انسان ... يتقلب بين حالين اثنين ... إما عطاء ... وإما بلاء ...

وله أمام هذين الحالين ... شعوران اثنان ... إما شاكراً ... وإما كفوراً ...

وأيوب ... عليه السلام ... دخل التجربة من بابيها ...

باب ... العطاء ... وباب ... البلاء ...

أعطاه ... فكان شاكراً ...

وابتلاه ... في جميع مقومات كيانه ... فكان صابراً ...

« إنا وجدناه صابراً » !..

فلما نجح ... في الاختبار ...

وضع الله ... على رأسه تاج الخلود ...

« نِعم العبد ... انه أوّاب » !..

وسجله في أعظم سجل للشرف ... في أعظم كتاب أنزله :

« واذكرْ عبدنا أيوب » !..

وجعله مثالاً خالداً للناس جميعاً ...

« رحمةً من عندنا ،

« وذِكرَى للعابدين » !..

يجد فيه كل إنسان ... النموذج الفذ ... لما ينبغي ان يكون عليه حاله ... مع ربه ... في العطاء أو البلاء ... في الخير أو الشر ... في النعمة أو النقمة ... في الفرح أو الحُزن ...

ومن هنا ... كان المنهج في « حيـــاة أيوب » هو التركيز على التحليل النفسي ... لا على سرد الحوادث ...

لأن مثال ... أيوب ... مثال تجربة انسان ... يُقلّب ذات اليمين وذات الشمال ... ويكون منه ما يكون ...

فالمناسب لهذا المثال ... هو التحليل للنفس البشرية ...

وهذا ما يجعل « حياة أيوب » من أنفع النماذج لكل إنسان ... لأنه يجد فيها نفسه منعكسة أمامه في مرآة أيوب ...

وهذا كذلك يجعل « حياة أيوب » ينفرد عن غيره من حياة الأنبياء ... بتلك الخاصية ... خاصية تحليل النفس البشرية وانفعالاتها ... وما ينبغي عليها نحو ربها في كل انفعال ...

وهذا يُعطي ... ان شاء الله ... هذا الكتاب بهجة جديدة ... وأُنساً بالله مأمولاً ...

« وقُل عسى أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رَشَدا » .

محمود شلبي

فجي ...!؟

قطع ...

كتاب الله ... بنبوة أيوب ... عليه السلام ...

وقطع كذلك ... بالايحاء اليه ... وإنزال الوحي اليه ... وذلك في قوله :

« ونُوحاً هدينا مِن قبلُ »

« ومن ذريته داوود وسليمان وأيوبَ ويوسف وموسى وهارون »

« وكذلك نجزي المحسنين » .

فهو نبي كريم ... من المحسنين ...

أي في أعلى أعالي الإحسان ...

في ذروة مقامات الإحسان ...

وفيه ... وفي اخوته الأنبياء ... صلى الله عليهم ... قال :

« أولئك الذين هدَى اللهُ »

« فبهداهم اقتَدِهْ » ...

وعلى هـــذا ... يتحتم على كل ذي عقل ... أن يمعن النظر ... ويديم التفكير ... في أحوال أيوب ... ليستفيد منها ... في سلوكه ... ويزن أحواله ... بميزان أحوال أيوب ! ..

« ووهبنا له أهله »

« وميثلهم معهم ».

« رحمة منا ».

« وذكرى لأولي الألباب » !..

لأهل العقول ... لكل ذي عقل ينفذ الى أعمــــاق الأمور ... ولا يقف عند القشور ...

تأملوا ملياً ... شخصية أيوب ... وفكروا كثيراً في أحواله ... وراجعوا أنفسكم ... وعدّلوا سلوككم على أساس من سلوكه الجميل ...

فليس قصص الأنبياء للتسلية ... وإنما هو للعبرة والاعتبار ...

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » !..

ومن هنا كان قصص الأنبياء أحسن القصص على الاطلاق ...

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك » !..

لأنها تقص أحوال ... أعلى أنواع البشر على الاطلاق ...

ومن هنا تحتم على كل ذي عقل ... أن يتدبر وأن يتفكر طويلاً ... إذا قرأ عن حياتهم ... أو استمع الى قصصهم ... عليهم السلام ...

فإذا ما كتبنا عن النبي أيوب ... عليه السلام ... فيجب عليك ان كنت من العقلاء ... أن تتأدب غاية الأدب ... وتتفكر غاية التفكر ... لتتعلم منه ... كيف يكون السلوك ... إلى ملك الملوك ...

فإن الأنبياء سفراء الله إلى خلقه ...

وهم أئمة الناس ... إلى ربهم ...

فاخفض صوتك ... في حضرتهم ...

وطاطىء رأسك ... في مجلسهم ...

عسى أن تكون من المفلحين !..

ثم ماذا ؟!

ثم إن أيوب ... عليه السلام ... أوحى الله اليه ما أوحى ... كما أوحى إلى سائر الأنبياء ...

« إنا أوحينا اليك .

« كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده .

« واوحينا الى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى .

« وأيوبَ .

« ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا » .

وأيوبَ ؟!.

أي ... وأيوبَ ... أوحينا اليه !..

فهو ... عليه السلام ... نبي ... كريم ... عظيم ...

أوحى الله اليه ... ما شاء ...

واختاره ... واصطفاه ...

وشرفه ... بأن ابتلاه ...

ثم زاده ... شرفاً ... بأن جعله ... مثالاً ...

فزاده بذلك ... جمالاً ... وكمالاً !..

ما ... هي ... الحياة ...؟!

كان الله ...

ولم يكن شيء معه ...

ثم خلق كل شيء ...

حتى هنا ... حقيقتان ...

الله ... وحده ...

ثم كل شيء ... حادث ...

إذاً كل شيء ... لله ...

« لله مُلكُ السماوات والأرض » !..

فالحقيقة الأولى المنبثقة من هاتين الحقيقتين ... أن كل شيء ... ملك لله ... وحده ...

فلما خُلقت المخلوقات ... خُلقت لحساب الله ...

ولما نُظمت في نظام عام ينتظمها ... نُظمت على أنها مملكة واحدة ... لمالك واحد ...

وكان التقدير ... أو التخطيط ... أن الكل مرتبط بالكل ...

ومثال ذلك ... جسم الإنسان ... فيه ملايين الخلايا ... وكل خلية مرتبطة بكل خلية ... ومن مجموعها يتكون جسم إنسان واحد ...

هكذا العالم كله ... أعداد لا تحصى من الكائنات ... الكل كائن وجوده المنفصل ... ووجوده المتصل بغيره ... والجميع في النهاية ... يتكون منه عالم واحد ... أو مُلك واحد ... برأسه مَلك واحد ...

وعلى هذا نقول ...

الكل مُخلق ... لله ...

والكل مرتبط بالكل ...

فالتوحيد ... الكل ... لله ...

والأخلاق ... الكل ... للكل ...

فلما أنزل الله الأديان إلى الناس ...

كان مدارها كلها ... أن يعرف الناس ... هاتين الحقيقتين ...

ان الكل ... لله ... وهذا هو التوحيد ...

وإن الكل ... للكل ... وهذه هي الأخلاق ...

ومهما تشعبت التفاصيل ... فإنها لا تخرج عن هاتين الحقيقتين ...

الخلق مخلوقون ... لله ...

الخلق مرتبطون ... بعضهم ببعض ...

ومن الأولى ... كان التوحيد ...

إله واحد ... خلَق الخلق ... له ... فهم جميعاً ... عباده ... وهو سيدهم ... لا ينازعه في ذلك أحد ...

ومخلوقات ... لا تتناهى ... كلها ... عليها أن تعلم أن لها سيداً واحداً ...

ومن الحقيقة الثانية ... الكل للكل ... كانت الأخلاق ...

ومدار الأخلاق ... أن تعيش لغيرك ... وغيرك يعيش لك ... لأن الكل مرتبط بالكل ...

فالورقة تعيش للشجرة ... والشجرة تعيش للورقة ...

فلو فصلت الشجرة عن الأوراق ماتت ... ولو فصلت الورقة عن الشجرة ماتت ...

وهكذا كل شيء في العالم ...

لو فصلت السماء عن الأرض ... اختلت السماء واختلت الأرض ... ولو وصلتهما صلحت السماء وصلحت الأرض ...

ونفس القانون يسري في فكرة الحياة ...

لو فصلت هذه الحياة الدنيا ... عن الحياة الآخرة ... لا تستطيع أن تفهم شيئاً ... عن الحياة الدنيا ... ولا عن الحياة الآخرة ...

لأن التخطيط الأصلي لهما ... أنهما وحدة واحدة ... مرتبطة هذه بتلك ...

فالدنيا ... والآخرة ... فصلان في رواية واحدة ...

وإذا شهدت الفصل الأول وحده ... لم تفهم شيئاً عن الرواية كلها ...

وإذا شهدت الفصل الثاني ... وحده ... لم تفهم شيئاً كذلك عن الرواية ...

ولكن إذا شهدت الفصلين ... تكاملت عندك فكرة الرواية ... وما تهدف اليه ...

وحين خطّط الله العالم ... أو قدّر القدَر ... بلغة الشرائع ...

قدّره ... على أنه مملكة واحدة ... يملكها ملك واحد ...

فالمملكة وما فيها من مماليك ... عبيد للملك ...

والملك ... وضع نظاماً... يحيا به هؤلاء المماليك ... في تلك المملكة ...

وهذا النظام ... هو ... الكل في خدمة الكل ...

فإذا ما انتظموا جميعاً ... على هذا التخطيط ... عاشوا جميعاً أحسن حياة ...

فإذا ما عاشوا ... كان هدف حياتهم ... أن يعلموا أنهم جميعاً ... عباد ... لله ...

ولما كان الملك لا يكون ملكاً ... إلا إذا أمر ونهى ... مماليكه ...

والمماليك لا يكونون مماليك ... إلا إذا أطاعوا ... ما أمرهم الملك وما نهاهم ...

كان حق الله ... أن يأمر الخلق وينهاهم ...

وحق المماليك ... إذا أطاعوا الملك ... أن يرضى عنهم ...

« أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟

« قال : الله ورسوله أعلم .

« قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

« وحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك ، ان لا يعذبهم» !..

أو – كما قال –

هذا هو الميثاق الأزلي ... بين الله ... والخلق ...

الكل ... لله ... وهذا هو التوحيد ...

والكل ... للكل ... وهذه هي الأخلاق ...

وكل دين سماوي ... يقوم على هاتين الحقيقتين ...

إله واحد ... خلق كل شيء ... له ... هو ...

وكل شيء ... ُخلق لكل شيء ... لأن المملكة واحدة ... وصلاحها أن يكون كل أحد ... لكل أحد ...

والكل في النهاية ... لإله ... أحد !..

وجميع الرسل ... سفراء ... لله ... إلى العبـــاد ... ليذكروهم ... وينبهوهم ... الى تلك الحقيقة الجامعة ...

هذا عن التخطيط العام للعالم ...

فماذا عن الحلقة المسماة بالحياة ... من ذلك التخطيط الكبير ؟!

ماذا عن الحلقة التي تشغلنا جميعاً ... منذ آدم إلى نهاية هذه الحياة ؟!

ماذا عن السؤال الكبير ... الذي يسأله كل إنسان ولا يجـــد عنه جواباً يرضيه ؟!

وما هي الحياة ... لماذا هذه الحياة ... وما هدفها ... ولمـــاذا ُأدخلنا فيها ... و ُأخرجنا منها ؟!.

ولماذا ُملئت خوفاً وحُزناً واضطراباً ؟!

وما هو القانون الذي يحكمها ... ومَن هو السيد الذي يديرها ؟!

ألم يكن ممكناً ألا تكون ؟!

أما وقد كانت فماذا وراءها ؟!

وما الدليل على ان شيئاً وراءها ؟!

ولنفرض انها تنتهي بالموت ... فهل هذه ُتعتبر حياة مقبولة... اذا كانت نهايتها تلك الكآبة الموحشة ؟!

أسئلة لا اول لها ولا آخر ... يطرحها كل انسان ... ويبحث عن اجابة

شافية ... ولكن الاجابة ليست سهلة ... وإنمـــا تستلزم فهْماً كلياً ... للقضية العظمى !..

وهذه الحلقة ... هي الحلقة الخطيرة بالنسبة للإنسان ... كل انسان ... في التخطيط العام للعالم ...

لأن الذي يهم كل إنسان ... هو أن يعلم ... مَن هو ... ولمـاذا هو ... وإلى أين هو ؟!

أما ما وراء ذلك ... من أمور العـــالم فلا تعنيه في شيء ... مهما كانت ضخامتها بالنسبة إلى موضوعه ... وتلك طبيعة الإنسان !..

والآن ... ما هي الحياة ؟!.

الحياة ... إرادة الله ...

« اني جاعلٌ في الأرض خليفة » !..

كن ... فيكون ...

إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

فلا مدخل لنا ... في أن نكون ...

لأننا كلمة ...

كونوا ... فكُنّا ...

وهذا أول النعمة ... أن يمنحنا الله ... نعمة الوجود ...

وأي وجود ؟!. أجمل وجود ... وأعلى صور الوجود

وهل هناك أجمل من صورة الإنسان ؟!

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » !..

وهل يسجد الملائكة ... وهم المكرمون... إلا لمن كان هو أكرم منهم ؟!.

وهنا تعظم النعمة ... ويعظم الإنعام ...

ليس فقط نقلني من العدم المحض ... إلى الوجود ... مجرد وجود ...

ولكن إلى أجمل وجود ... وأعلى وجود !..

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات .

« وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » !..

وهذه وحدها ... نعمة الإخراج من العدم ... إلى أحسن صور الوجود ... تستلزم منـــا ... لو نعقل ... أن نسجد لله شاكرين أنعمه ... من الأزل إلى الأبد ...

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » !..

أجمل وأعلى تركيب !..

كيف كان التركيب ؟!.

خلقه الله ... بيديه !..

أي ... بصفتيه الجامعتين ... الجمال ... والجلال ...

ففي الإنسان ... نفخة جمال ... ونفخة جلال ... وهما نفخة واحدة ...

« ونفخت فيه من روحي » !..

« ما منعك ان تسجد لما خلقت بيديّ » ؟!.

ومن هنا كان التوجيه الشريف : ألِظّوا بياذا الجلال والاكرام » !..

أي أنتم فيكم نفخة الجلال والجمال .. فنادوا جميع أسماء الجلال والإكرام ... فتستجيب كلها ... لما يقابلها فيكم !..

يا لله !.. ما لهذا الوحي الإلهي ... لا يغـــادر صغيرة ولا كبيرة ... إلا أحصاها ؟!.

كيف كان التركيب ؟!

تمثال ... صورة ... من كل الأرض ... أي جسد ...

ثم نفخة ... في هذه الصورة ... فإذا آدم ... إنساناً يسعى !..

في أكمل صورة ...

كيف كان ذلك ؟!.

هذه وقاحة منا ... أن نسأل هذا السؤال ... لأن هذا اختصاص الله ... لا يطلع عليه أحداً ... لأن أحداً لا يُطيق أن يحتمل سره !..

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » !..

تركيبكم أضعف من احتمال تلك الأسرار ...

« ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » !..

وتمت كلمة ربك الحسنى على الإنسان ...

وأمر الملائكة أجمعين ... بالسجود لآدم ... لظهور صفات الجمال والجلال فيه ...

« فسجدوا .

« إلا ابليس أبَى » !..

لينشأ التضاد ... قانون التضاد ...

ومن هنا ... بدأ الأمر والنهي ...

« أن هذا عدوٌ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » !..

« يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة .

« وكلا منها رغداً حيث شئتما .

« ولا تقربا ... هذه الشجرة » !..

الأمر ... اسكُنْ ... كُلا ...

النهي ... لا تقربا ...

لقد بدأ ... الأمر والنهي ...

ولكن آدم خير محض حتى الآن ... لا يدري ما الخير وما الشر ؟!.

فلا بد من تجربة ... يدرك منها ... أن هذا خير ... وهذا شر ... ولماذا نهاه عن الأكل من الشجرة ؟!.

وكانت التجربة ... ضُرِب آدم بالقوة المضادة ... المسماة إبليس ...

فجاءه الخبيث من حيث لا يفهم ...

« ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة .

« إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين » !..

وجازت الخدعة ... وصَدّق آدم أن المذكور يقدم له نُصحاً ثميناً !..

« وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين » !..

ووقعت المعصية الخالدة ...

« فأكلا منها .

« فبدت لهما سوآتهما .

« وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .

« وعصى آدم ربه فغوَى » !..

لقد بدأت الحياة بمعناها المتكامل... لقد ظهرت الحقيقة الآدمية متكاملة... بصفاتها المتضادة ... المتقابلة ...

لقد أدرك آدم الآن ... ما الخير وما الشر ؟!

أدرك الآن أن هناك كائنات كاذبة ... توسوس بالشر ... وتدفع اليه ...
وفَهم الآن ... لماذا نهاه ربه عَن هذه الشجرة ...
لقد ظهرت عورتهما ... نقصهما ... وحدث ارتبـــاك شديد ... كيف يستتران ... وكيف يكون موقفهما بعد الآن ؟!
واشتد ندمهما ... وطال ...
« وناداهما ربهما .
« ألم أنهكما عن تلكما الشجرة .
« وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين » ؟!.
لقد بدأ الآن ظهور الربوبية ... تحذر ... وتعتب ...
« قالا ربنا ظلمنا انفسنا .
« وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .
لقد بدأ الآن ظهور العبودية... وتوجههما إلى ربهما... آسفة على ما فعلت... معترفة بخطئها ... مسترحمة ربها أن يغفر لها ويرحمها ...
« فتلقى آدم من ربه كلمات .
« فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » .
وهكذا تكامل التكوين الآدمي ...
ليتقابل مع الكمال الإلهي ...
فتظهر بذلك جميع الأسماء الحسنى في الانسان ...
فلما تم التكامل في التركيب الادمي ... أصبح مؤهلا ... لأن ينزل إلى الأرض ... ليحيا فيها هو وذريته من بعده ...
وقد كان ... وصدر الأمر ...

« قلنا اهبطوا منها جميعاً .

« فاما يأتينكم مني هدى .

« فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » !..

وبدأت قصة الحياة البشرية على هذه الأرض ... من تلك اللحظة ... إلى ما شاء الله ...

بدأت بعد أن اكتسب الانسان الأول كاله ...

عصى ... ثم ندم وتاب ... ثم غفر الله له ...

فأدرك الشر ... وندم على فعله ... ورجع إلى ربه ... واعتذر اليه ... فقبل اعتذاره وعفا عنه ...

ثم أمره أن ينزل إلى الأرض ... ليخوض معركة الحياة الدنيا ...

وحذره من الشيطان ... لأنه يترصده وذريته ... لأن المضادة غريزية بين الانسان والشيطان ...

وهذا هو معنى ... العدو ... أي المضاد ...

فما يسر الانسان ... يحزن الشيطان ...

وما يحزن الشيطان ... يسر الانسان ...

ومن يومهـــا ... يتناسل بنو آدم ... ويتكاثرون ... حتى كانت هذه البشرية الجميلة ... بضجيجها وعجيجها ... وخيرها وشرها ... وتقدمها وتأخرها ... والله ينظر من فوقهم : ماذا هم فاعلون ؟!

« الذي خلق الموت والحياة ليبلونكم أيكم احسن عملا » !..

وفتح الله أبواب المغفرة للإنسان على مصراعيها ... ما استغفروه ...

« قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسكم .

« لا تقنطوا من رحمة الله .
« ان الله يغفر الذنوب جميعاً .
« انه هو الغفور الرحيم » !.
وهذا هو المقابل الطبيعي ... لوجود الخطأ في ما يصدر عن الانسان ...
« كل ابن آدم خطّاء .
« وخير الخطائين التوابون » !..
وهذا غاية الرحمة الإلهية ... بالكائن المسمى بالإنسان ...

لا اعنات ... ولا ارهاق.. ولا تكليف بما لا يستطاع ... ولا تشديد... ولكن رحمة واسعة ... ومغفرة واسعة ... لكن انسان يخطىء ... فيسرع معتذراً إلى ربه ... فيجد الله تواباً رحيماً !..

كما يتلبط الطفل بعيداً عن أمه ... ثم يجري اليها في شوق ... فتتلقاه فرحة به وتغمره بحنانها وعطفها ... على ما كان منه ... ومهما كان منه !..

و « الله ارحم بعباده من هذه بولدها » !..
فالله ... جميل ... والله رحيم ... والله لطيف بعباده ...
فليكُفَّ المنفرون فوراً عن تنفيرهم ...
ولا يتباكى المتباكون على معصية آدم ...

فقد كانت معصية مرادة ... تحتمها ارادة تكامل التكوين الآدمي ...
وتحتمها ضرورة تكامل العقل الآدمي ...
فلما عصى آدم ... ذاق الانكسار والاضطرار والافتقار ...
وهذه كلها كمالات ... لا تستوفى ... ولا يمكن الحصول عليها ... إلا

بالمرور بالمعصية ... ثم المرور بمقامات التوبة ... والاستغفار ... والغفران ... وهذه كلها رحمات ومقامات ودرجات ...

ومن هنا كذلك ... أهبط الانسان إلى الأرض ... ليحيا هـذه الحياة الدنيا ...

بما فيها من صراعات ... بين الخير والشر ... والاقبال والادبار ...

فيستكمل مراتب رقيه ... ويبلغ من تلك المراتب ما يستطيع ...

فتترتب على ذلك ... درجات الجنة ... ودركات النار ... فالارتباط تام بين الحياتين ... الدنيا والآخرة ...

والتركيب متلاحم ومترابط بين الاثنتين ...

فدرجات الجنة ... يتقاسمها أهلها ... حسبما حقق كل منهم من مراتب الترقي في الدنيا ...

ودركات النار ... يتقاسمها أهلهـا ... حسبما حقق كل منهم من منازل التدلي والانحطاط في الدنيا ...

لا فصل البتة بين هذه الدنيا ... وتلك الدار الآخرة ...

ولو فصلت احداهما عن الأخرى ... لبدت صورة الحياة في نظرك سخيفة غير مفهومة ... وعبثاً لا طائل وراءه ...

وتلك مصيبة الذين يقفون عند « **ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** » !..

لا معنى للحياة عندهم ... فهي فكرة سخيفة ... وأحسن ما تقابل به ... أن يستهلكها الانسان فيما يعود عليه باللذة ... لأن نهايتها قبيحة ... جيفة منتنة ... في حفرة مظلمة ... تعافها الكلاب والخنازير !..

ولكن النظرة الصحيحة ... أن تأخذ الحياتين ككل ... على أنهما حياة واحدة ...

منها قطرة ... اسمها الحياة الدنيا ... نعيشها هنا ... لنسجل لأنفسنا ... أقصى ما تستطيعه من رقي إلى أعلى ... أو انحطاط إلى أسفل ...

ثم تحدث عملية الموت ...

فنترك هذه الحياة ...

ثم في موعد حدده الله ...

يقوم الناس جميعاً لرب العالمين ...

ثم يفصل بينهم ... ويوفيهم أجورهم ...

هؤلاء إلى النار ...

وهؤلاء إلى الجنة ...

ثم يتقاسم هؤلاء وهؤلاء دارهم بنسبة ماحقق كل منهم من تراق أو هبوط ... في حياتهم الدنيا ...

تخطيط عظيم ... لا يكون إلا من عظيم ...

وتخطيط محكم ... لا يكون إلا من حكيم ...

وتخطيط محيط ... لا يكون إلا ممن أحاط بكل شيء علماً ...

وتخطيط رحيم ... لا يكون إلا من أرحم الراحمين ...

وتخطيط عادل ... لا يكون إلا من حَكَم عدل ...

وتخطيط يجيب على جميع الأسئلة التي يطرحها الانسان ... عن الحياة ...

وتخطيط يكشف لنا ... سر ما يجري من بلاء في الحياة ... لا نستطيع له فهماً ولا تأويلاً !..

ولكن إذا نظرنا بالمنظار الكلي ... الذي يسميه العارفون ... عين الله ...

إذا نظرت بعين الله ...

على مستوى العالم كله ... عموماً ...

وعلى مستوى الآدميين خصوصاً ...

تجلت عظمة الحكمة الإلهية ...

حين خططت ... أو حين قدّرت تقديراً ... « **وخلق كل شيء فقدّره تقديراً** » !..

وأيقنت ان التخطيط حقـاً وصدقاً ... وفعلا ... أحسن تخطيط ... « **الذي أحسن كل شيء خلقه** » !..

وأن المـَلك ... حـين خطط مملكته ... جاء تخطيطه ... ليس كمثله تخطيط ...

وأن المـَلك ... مَلك الدنيا والآخرة ... حين خطط الحياة ... خططها على أنها وحدة واحدة متكاملة ... احداها ها هنا في هـذه الدنيا ... فترة اختبار ... فرصة ... سباق بين الناس ... حسبما يريدون لأنفسهم ... ثم ينتهي هذه الفترة ... وينتقل الناس إلى باقي الحياة ...

ويأخذ كل منهم منزله فيهـا ... بنسبة اختياره ... وما سجل لنفسه في دنياه ...

ولا يتصور ... أجمل ... ولا أكمل ... ولا أدق ... ولا أعدل ... ولا أبهج من هذا التخطيط !..

ذلكم ... شيء عن جمال القـَدَر ... وعظمة التخطيط ...

وهذه هي الحياة ... لمن يسألون : ما هي الحياة ؟!.

ما ... هو ... الانسان ...؟!

قلنا . . .

ان أوق الانعام . . . أن يخرجنا من العدم . . . إلى الوجود . . .

وإن أعظم الانعام . . . أن يخرجنا إلى الوجود . . . في أحسن تركيب . . .

فما هو هذا التركيب الآدمي البديع ؟!.

الحياة يوم مكرر . . .

والبشرية إنسان مكرر . . .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم .

« الذي خلقكم من نفس واحدة .

« وخلق منها زوجها .

« وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً . . .

فالعجب غاية العجب . . . أن هذه البشرية كلها . . . بدأت من بشر واحد !..

كيف كان هذا ؟!. الجواب ما نشهد . . . أمام أعيننـــا . . . والكيفية لا سبيل اليها . . . الله يعلمها . . .

وأعجب من ذلك أن التركيب من تراب . . .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب .

« ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » !..

كيف ؟!. الجواب ما نرى ... لا ما نعلم ... والله أعلم ...

ولكن هل التركيب من تراب فقط ؟!. كلا فالأمر أمر عظيم ...

قلنا أن البشرية إنسان واحد مكرر ... يتكرر ...

وعلى هذا فإن أي إنسان يحكى في خلقه ... حكاية خلق الناس جميعاً ...

وقلنا أن الحياة يوم مكرر ...

وعلى هـــذا فمجموع أيام أي إنسان ... هي هي مجموع أطوار كل فرد من الناس ...

فما هو التركيب الآدمي العجيب ؟!

هو هذا ...

جسد ... أو صورة ... من تراب ...

روح ... تُنفخ في هذا الجسد ... أو الصورة ...

فإذا هذا ... بشر يسمى !..

كيف ؟!. الجواب ما نشهد ... والله أعلم !..

فأنت جسد ... فيه روح ...

فإذا اتحدت الروح ... مع الجسد ... نشأ شيء جديد ... هو النفس ...

وأرجوا الانتباه الشديد ... إلى هذا التقسيم ... لأنه مدار الأمر كله بالنسبة إلى كل إنسان !..

فالجسد ... مما نعلم من عناصر الأرض كلها ...

والروح ... من أمر ربي ... من عالم الأمر ...

وعلى سبيل المثال للتقريب ...

مثال التليفزيون الملون ...

جهاز التليفزيون بدون تيـــار الكهرباء ... يشبه الجسد ... ولا قيمة له بدون تيار الكهرباء ... فهو جثة هامدة ...

تيار الكهرباء ... يشبه الروح ... بمجرد سريان التيار في الجهـــاز ... يتحول إلى شيء صالح للحياة ...

بتشغيل الجهـــاز ... تصدر عنه الأصوات والمناظر والألوان ... التي نشاهدها على شاشته ... وهذا يشبه النفس في التركيب الآدمي !..

إلا أن هــــذا المثال محدود غاية المحدودية ... فالإنسان كائن عجيب ... وخلق رائع لا آخر لعجائب تركيبه ...

نعود فنقول أنت ... ما أنت ؟!

أنت ... جسد ... ثم روح ... ثم منهما معاً أنت صرتَ نفساً !..

ومن هنا نقول ... تُنفخ الروح في الإنسان ... رُوحاً ...

وتخرج الروح من الانسان ... عند الموت ... نَفْساً ...

أي أن الروح عند خروجها من الجسد ... تكون نَفْساً ... وليست روحاً كما دخلت أول مرة إلى الجسد ...

وحين تغادر الروح الجسد مؤقتاً عند النوم ... تغادره نَفْساً ... وتعود اليه عند الانتباه نَفْساً ...

« الله يتوفى الأنفس حين موتها .

« والتي لم تمت في منامها .

« فيمسك التي قضى عليها الموت .

« ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى .

« إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

آيات ؟!. عجائب يحار فيها المفكرون ...

ان عملية الموت ... تجرى فيك كلما نمت ... وعملية البعث تجرى فيك كلما استيقظت ... ولكن بنسبة تسمح باستمرار الحياة مؤقتاً في النوم ... وعودتها مرة أخرى في الانتباه ...

« والله لتموتن كما تنامون .

« ولتبعثن كما تستيقظون » !..

خلاصة هذا القانون ... أن الروح بعد اختلاطها بالجسد ... تكتسب نشأة جديدة ... اسمها النفس ...

فالنفس ... هي الإنسان ...

وعلى ذلـــك كان الخطاب في الكتاب المنزل ... يتوجه إلى النفس ... وليس إلى الجسد ... ولا إلى الروح ...

لأن الجسد وحده ... جيفة منتنة لا تُخاطَب ولا تُكلف ...

كما أن الروح وحدها قوة حياة مجردة ... لا تكليف عليها ...

وإنما التكليف على التركيب المتكامل من الجسد والروح معـــاً ... وهو المسمى بالنفس أو الإنسان ...

وهذا التقسيم خطير جداً ... يجب التركيز عليه غاية التركيز ...

النفس ... هي الإنسان ...

هي التركيب العجيب في خلق البشر ...

وهي التي قامت عليها الفكرة كلها ... وقصة الحياة كلها ...

وهدفها ... وما تؤول اليه ... في الفصل الثـــاني ... المسمى باليوم الآخر ...

وهذه النفس ... تستعمل الجسد في التعبير المادي عن رغباتها المادية ... فهو جهاز يحقق إرادتها في المادة ...

وتستعمل الروح ... في التعبير الروحي عن رغباتها الروحية ...

وهذه النفس ... حُرة تمام الحرية ... أن تفعل ما تشاء ... وتتجه كيف تشاء ...

والمقابل الطبيعي ... لحريتها هذه ... أن تُكلف ... من قِبل خالقها...

لينظر ... ماذا تختار ... أطائعة أم عاصية ؟!.

والمكافأة الطبيعية ... أن تثاب على اختيارها ... ان خيراً فخير ... وإن شراً فشر ...

واقتضى ذلك ... أن يكون تركيبها صالحاً للخير ... وصالحاً للشر ... فإن تيامنت تطاوع تركيبها للخير ... وإن تياسرت تطاوع تركيبها للشر ...

وهـــذا يفسر لك ... كيف يصدر عن إنسان ما الخير والشر في لحظة واحدة ؟!.

لأن النفس لها القدرة التامة ... على التقلب ... ذات اليمين ... أو ذات الشمال ... متى شاءت ...

« فمن شاء فليؤمن .

« ومن شاء فليكفر » ...

ولها القدرة على التذبذب المستمر ... آناً إلى أعلى ... وآناً إلى أسفل ...

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » !..

اقتضى ذلك ... أن يكون تركيبها يستطيع الخير أو الشر ...

« ونفس وما سواها .

« فألهمها فجورها وتقواها » !..

حتى هنا ... أسرار التركيب ...

سوّاها ... أي ركبها ... عندها القدرة أن تفجر ... وأن تتقى ...

أن تتجه إلى الشر ... أو أن تتجه إلى الخير ...

« قد أفلح من زكاها ،

« وقد خاب من دساها » .

هذا هو التوجيه ... الموجه إلى النفس ... لتنبيهها إلى احسان الاختيار ...

والنفس لها مطلق الاختيار ...

والمقابل لحريتها هذه ... أن تتحمل عاقبة اختيارها ...

وهذه النفس ... أو هذا الانسان ... أو هذا التركيب المتكامل ...

هو المخاطب ... بالشرائع السماوية ... والتكاليف الالهية ...

وتركيب الآدمي ... جميل غاية الجمال ...

معقد غاية التعقيد ...

متوازن غاية التوازن ...

متكامل غاية التكامل ...

منسجم غاية الانسجام ...

لا يتصور أن يتركب ... في تركيب أبدع من هذا التركيب !..

« في أي صورة ما شاء رَكـَّبَك » !..

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » !..

أي في أحسن تركيب ... يجمع بين الجمال والتوازن والانسجام في نِسَب محسوبة بموازين أدق من موازين الذّر !..

« الذي خلق فسَوّى » !..

وانظر إلى الطفل ... وهو حديث عهد ... بالصنعة الالهية ... لم يتدخل في صنعته الناس بعد فيفسدوها ... تجد في الطفل جمال الانسجام ... وبهجة التوازن ... وروعة الاخراج !..

كل مولود يولد على الفطرة » .

« فطرت الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » ...

فالفطرة هي الصنعة الالهية ... كما هي ... بغير تدخــــل من عوامل خارجية ... تؤدي إلى افساد الصنعة الأولى ...

والقدرة الالهية ... بارزة جداً ... في تركيب الانسان ... لا تحتاج إلى كثير تفتيش ...

وفي أنفسكم .

« أفلا تبصرون » ؟!.

مجرد النظرة العادية ... إلى تركيبك ... كافية لأن تدلك على قدرة ربك ... البارزة في خلقك ...

ومن فضول الكلام ... أن نذهب نعدد عجائب تركيب جسم الإنسان...

وما فيه من أجهزة متعددة ... متعـــاونة ... منظمة ... مؤتمرة بأمر مُطاع ...

فهذا مضمار سباق بين العلماء المتخصصين في تلك العلوم ...

إلا أنهم جميعاً ... على ما بلغوا من مستويات رفيعة من العلوم ... يجمعون على حقيقة عليها لا يختلفون ...

ان ما اكتشف حـــتى الآن من مجاهل تركيب جسم الانسان نسبة ضئيلة بالنسبة إلى ما لم يكتشف !..

إلا أن الذي يهمنا هنا ان نقول ... أن هذا الجسم ... بسائر أجهزته ... رهن إشارة النفس ... تستعمله كيف شاءت ...

ان شاءت في الاجرام ... ففي الاجرام ...

وإن شاءت في الخير ... ففي الخير ...

كما أن جهاز التليفيزيون بأكمله رهن اصبعك ... ان شئت مسسته بأغلتك فانفتح ... وإن شئت مسسته فانغلق ...

كذلكم النفس ... والجسد ...

تستعمله في ما تريد ... وهو طوع إرادتها !..

وهذا يفسر لك اختلاف الناس ... فيما يعملون ... وفيما يقولون ... وفيما يتصورون ... وفيما يفكرون ...

فالنفس ... هي ظهور الحقيقة الآدمية ... ومن هنا انصبت عليهـــا التكاليف الشرعية كلها ...

وفي كتاب الله مئات من الآيات ... تتوجه إلى النفس ... وتخاطبها ... وتكلفها... وتعدها وتتوعدها... وتأمرها وتنهاها ... وتحذرها وتبشرها... وترد جميع تصرفات الناس ... إلى المكنون في نفوسهم ...

« وما أصابك من سيئة فمن نفسك » !..

« ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه » !..

ومن ترقى ... فإنما يترقى لنفسه ...

وهكذا جميع تصرفات الانسان ... تصدر عن نفسه ...

فالقاتل قتل لأن نفسه تريد القتل ...

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » !..

والبخل مرض في النفس ...

« ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه » ؟!.

ويتحتم من هنا أن يُلقى على النفس مسئولية اختيارها ...

« فمن اهتدى فلنفسه .

« ومن ضل فانما يضل عليها » !..

وأن تتلقى في نهاية المطاف ... ثواب أو عقاب اختيارها ...

« إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » !..

واستلزم جمال التخطيط الالهي ... أن يُترك لهـــا مطلق الحرية في الاختيار ...

فلا يحدث تدخل من قوة قاهرة تلجئها إلى اختيار معين ...

لمن الهيّن بالنسبة لله ... أن يهدي الجميع ... ولكن هذا لا يحدث لأنه ينافي الحكمة من الفكرة ...

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » !..

كان ممكناً أن تجمد النفوس جميعاً على الهُدى ... فلا تستطيع أن تعصى ... ويتحول الناس إلى أجهزة تسبيح ... ولكن ليس هذا هو المراد من خلق الانسان ...

المراد أن يكون كائناً حراً ... وأن يأتي إلى ربه باختياره ... أو يُدبر عنه باختياره ...

وهذا هو الحب الحقيقي ... القائم على الرغبة الحقيقية ...

أما حب الإلجاء ... فليس حُباً ...

« علمت نفس ما قدّمت وأخّرت » !..

ولما كان التكليف بما لا يطاق نوع ظلم ... والظلم مستحيل من الله ...

كان القانون ...

« لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .

و « لا نكلف نفساً إلا وسعها » !..

وهذا غاية الرحمة ... وغاية الرأفة ...

ولما استبعد الانسان فكرة البعث ... تلطف ربه به ففهمه أن الفكرة بسيطة جداً ... لو كنت تريد أن تفهم ...

« ما خلقكم وما بعثكم .

« إلا كنفس واحدة » .

البشرية إنسان مكرر ... نفس واحدة ... تتكرر ... فما وجه الغرابة أن نكررها مرة واحدة كلها ... كما نكررها الآن فرداً بعد فرد بالتناسل ؟!.

ان الذي يستطيع أن يطبع من الكتاب نسخة واحدة ... يستطيع أن يطبع منه مليون نسخة ...

ان الله يتنزل إلى عقولنا ... لعلنا نفهم !..

ولما كانت الفكرة أن تكون الحياة الدنيا ... للإجابة على أسئلة مطروحة ومحدودة ... لم يكن هناك ما يدعوا لإطالة الإقامة فيها ... انما هي سويعات ريثما يتم كل انسان الاجابة على الأسئلة ... ثم عليه أن يخرج منهـا ... ليأتي غيره ويجيب على نفس الأسئلة ...

فتحتم أن يكون عمر الانسان في الحياة الدنيا قليلا ومحدداً ...

قليلاً ... لأن هناك ملايين تنتظر النزول إلى الأرض لتؤدي الامتحان ... فيتحتم أن يمضي هؤلاء ويخلوا أماكنهم للآتين من بعدهم ...

ومحدداً ... لا يتقدم ولا يتأخر لحظة واحدة ... حتى لا يحدث اضطراب في مواعيد الامتحانات ...

« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

والساعة هنا بمعنى لحظة !..

والموت حتمي وقهري ... فمن تلكأ أو حاول أن يزيغ ... نُزع نزعاً ... وألقي في الحفرة رغم أنفه !..

« كل نفس ذائقة الموت » ؟!.

ولو ترك الله الموت باختيار الانسان ... ما رغب أحد قط أن يموت !..

استبان الآن ... ان النفس تنشأ عندما تُنفخ الروح في الجسد ...

وأن الروح وحدها ليست هي الإنسان ...

كما أن الجسد وحده ليس هو الإنسان ...

وإنما الإنسان ... هو النفس ... المكونة ها هنا ... من الروح والجسد...

وأن الانسان حين يموت ... يعود جسده إلى عنصره وهو التراب ... ويتحلل حتى يصير تراباً ...

وتعود نفسه ... إلى ربها ...

« يا أيتها النفس المطمئنة .

« ارجعي الى ربك راضية مرضية » .

ترجع الروح هنا نَفْساً ...

فما معنى هذا ؟!.

وماذا حدث ؟!.

تخرج الروح وقد اكتسبت في حياتها الدنيا ... نوراً ... أو ظُلمة ...

وها هنا قانون خطير خطير ...

يتشعشع من قوله تعالى :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور .

« والذين كفروا أوليـــاؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » ؟!.

والقانون العجيب هنا ...

أن كل توجه إلى الله ... يُحدث زيادة نور في النفس ...

وكل توجه إلى غير الله يحدث زيادة ظلمة في النفس ...

أي ... كل طاعة ... نور ...

وكل معصية ... ظلمة ...

والنفس ها هنا في الدنيا ... إما أن تطيع ربها ... فتزداد نوراً ...

وإما أن تعصى ربها ... فتزداد ظلمة ...

فعند الموت وانفصالها عن الجسد ... تكون حالتهـــا ... إما ازدادت نوراً ... أي اكتسبت خيراً ... وإما ازدادت ظلمة أي اكتسبت شراً ...

وبذلك يستحيل التدليس من أي انسان ...

فها هي حقيقته ناطقة عما كان منه في دنياه ...

إما نفس نورية ...

وإما نفس ظلمانية ...

وهـــذا هو الحساب ... السريع ... الذي سوف يفاجأ به كل إنسان لحظة موته ؟!.

ويتقاسم النـــاس بعد الموت برازخهم ... بنسبة نورانية نفوسهم أو ظلمانيتها ... ينتظرون جميعاً القيامة الكبرى !..

« ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت .

« والملائكة باسطوا أيديهم .

« أخرجوا أنفسكم .

« اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » !..

نعم ... لقد فوجئوا بما لم يكونوا يحتسبون !..

لقد انفصلت أجسادهم عنهم ... وأصبحت نفوسهم عارية تمامـــاً من أي غطاء ... وشهدوا الحقيقة ...

« فكشفنا عنك غطاءك .

« فبصرك اليوم حديد » .

ثم ماذا ؟ !

ثم نعود إلى التركيب الآدمي العجيب ...

كائن ... فيه روح نزّاعة إلى ربها ...

وجسد ... نزّاع إلى التراب ...

والنفس مأمورة بإقامة التوازن بين العنصرين ...

وهي لا تدرك هذا التوازن إلا بالاستماع إلى توجيه من صنع هذا التركيب...

فهو الذي يعلم... كيفية استعمال الجهاز... بحيث تتحقق للروح حياتها... وتتحقق للجسد حياته ...

وها هنا دور الشريعة السماوية ... وحتمية الاستماع اليهـــا ... أو الإسلام لها ...

فالشريعة هي الميزان ...

تقول ... افعل ... لا تفعل ...

اعتقد ... لا تعتقد ...

تنظر النفس العاقلة اليها ... فتعلم هل هذا صحيح ... أم خطأ ؟!.

وبذلك تتجنب التحطم ... والاصطدام مع نواميس العالم القاهرة ...

وهدف الشرائع السماوية ... هو انتظـــام وانسجام الإنسان مع سائر النواميس التي تحكم الكون ...

ولم تنزل الشرائع السماوية بتكليف الانسان ... إلا بعد أن اكتمل تركيبه ... واكتمل نضجه ... وأصبح مستعداً أن يحمل المسئولية ...

فلا تكليف عليه قبل سن البلوغ ...

وأعطى الله الانسان العقل ... للتمييز بين الخطأ والصواب ...

وأرسل اليه رسلاً يرشدون هذا العقل ما هو الخطأ والصواب ...

وأسقط عنه المسئولية ... إذا استكره على شيء يعطل حـــرية الارادة وحرية الاختيار ...

ثم خفف عنه ... بفتح باب التوبة ... مهما كانت جريمته ...

ثم زاده تخفيفاً ... بتحويل جميع ذنوبه السابقة ... إذا تاب وأناب ... إلى حسنات !..

ثم رحمه أكثر وأكثر بأن قبل توبته ما لم يغرغر ... أي ما لم يتم موته ...

فالانسان ... نفس ...

والنفس ... تركيب من روح ... وجسد ...

الروح ... نزّاعة إلى ربها ...

والجسد ... نزاع إلى أصله ... إلى التراب ... إلى الأرض ...

ولا يتوقف هـــذا الصراع المستمر إلا بفصل العنصرين ... وهو ما نسميه بالموت ...

وللروح ... جُند هي الملائكة ... توحي اليها الخير ... وتعينها عليه ...

وللجسد ... جُند هي الشياطين ... توسوس اليه الشر ... وتعينه عليه ...

فإذا اتجه الانسان إلى ربه ... أعانته الملائكة ... وتنزلت عليه ...

وإذا اتجه إلى أسفل ... أعانته الشياطين ... وزينت له عمله ...

معركة ... معركة لا تهدأ أبداً ما دمت حياً ...

نزاع شديد ... بين القوتين ...

والإنسان هو المسرح ... وله أن يختار ...

هذا هو الانسان ... في تركيز التركيز ...

ولا نستطيع الإفاضة ... لأن المجال لا يسمح بالإفاضة !..

لماذا ... البكاء ...؟!

البلاء . . .

ناموس حتمي . . . في مقابلة تركيب الإنسان . . .

ليتحقق التوازن من الانسان . . .

فما معنى هذا ؟!

قلنا ان الله خلق آدم بيديه . . . أي بصفتي الجمال والجلال . . .

أي لتظهر فيه جميع أسماء الجمال والجلال . . . بنسب معينة . . .

فجاء الانسان . . . كائن متضاد . . .

ومن هذا التضاد . . . برزت الحقيقة الآدمية . . .

روح . . . تضاد . . . جسداً . . .

خير . . . وشر . . .

ارتفاع . . . انخفاض . . .

اقبال . . . ادبار . . .

طاعة . . . معصية . . .

عز . . . ذل . . .

غنى . . . فقر . . .

صحة . . . مرض . . .

علم ... جهل ...

صلاح ... فساد ...

ايمان ... كفر ...

قُرب ... بُعد ...

وهكذا ما لا يتناهى ... من الأضداد في تكوين الانسان الواحد ...

والانسان يُقلب ... ويتقلب بين الشيء وضده ...

« ان قلوب بني آدم كلها .

« بين اصبعين من أصابع الرحمن .

« كقلب واحد يُصرّفه حيث يشاء » ...

ومتى تقلّب القلب ... انقلبت معه سائر الأعضاء ... فإنه ملك الجسد...

« ألا وإن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله .

« وإذا فسدت فسد الجسد كله .

« ألا وهي القلب » !..

ليس ذاك وحده ... من عجائب تركيب الانسان ...

ففوق ما هو متقلب ...

فإن مجال تقلبه واسع جداً ...

يبدأ من أعلى عليين ... وينتهي إلى أسفل سافلين ...

لوحة اختياره ... ومجال تقلبه لا حدود لها ... صاعداً ... أو نازلاً ...

ولذلك تجد من نوع الانسان أنبياء ... في أعلى مراتب السمو ...

وتجد من نوع الانسان ... أسافل في أسفل سافلين ...

وكان ذلك كذلك ... لأن الإنسان له حرية التنقل في جميع مراتب التقدم والتأخر ... الصعود والنزول ... السمو والانحطاط !..

وأعجب من ذلك ... أن في تركيب الانسان ... تنطوي جميع مراتب الكائنات . . .

ففيه مرتبة التراب ...

ومرتبة النبات ...

ومرتبة الحيوان ...

ومرتبة الملائكة . . .

ومرتبة الشياطين ...

العوالم كلهـــا . . . مختصرة في تركيب الإنسان . . . ومتوازنة في توازن عجيب ...

ومن اتساع دائرة التقلب الآدمي ... وتجمع المراتب كلها فيه ...

وقيام الارادة الحرة فيه ...

كان له القدرة على التنقل حيث يشاء علواً أو نزولاً ... والظهور بالصفة التي أراد الظهور بها ...

وهذا هو سر اختلاف الناس في كل شيء ... في اللحظة الواحدة ... ثم في سياق الحياة كلها ...

فتجد من الناس ... من يغلب عليهم صفات الملائكة ...

ومنهم من يغلب عليه صفات الشياطين ...

ومنهم من يغلب عليه صفات الحيوانات ...

ومنهم من يغلب عليه صفات الجمادات ... من الجمود وعدم التطور ...

وأخرى أعجب وأعجب في تركيب الانسان ...

وهي القدرة على التطور ... اما إلى أحسن وإما إلى أسوأ ...

ونشأ من هذا تلك الحصيلة الهائلة من التقدم الحضاري في شق أمور الحياة...

الخلاصة ... ما دام تركيب الانسان ... يحوي كل المتضادات ... وكل الكائنات... وكل القدرة على الصعود أو الهبوط... وكل القدرة على التطور... مع وجود إرادة حرة تسمح بالتنقل بين هؤلاء جميعاً ...

تحتم اقامة قانون يحقق التوازن في مسار الانسان ... وإلا انقلب أمر الحياة فوضى ...

وهذا قانون هو قانون البلاء ...

قانون ضرب الانسان ... كلما جاوز نقطة التوازن ... لإرغامه على العودة الى التوازن ... وهو المسمى بالصراط المستقيم ...

فالبلاء قانون حتمي ... يقابل اعطاء الانسان حرية الاختيار والتنقل ...

عطاء ... يقابله بلاء ...

وبهذا التقابل ... يتم التوازن ...

وهذا من أجل ما قدّر الله ... في تكوين الانسان ...

هذا هو الناموس ... أو البحر الذي تنبع منه جميع أنهار البلاء ...

فلا مبرر لنواح الإنسان الدائم : لماذا ابتلى ... وماذا صنعتُ لأبتلي ... وما ذنبي أن تُصب المصائب عليّ صبّاً صبّاً ؟!.

وما زال النـــاس ينوحون ويولولون ... كلما نزلت بهم مصيبة ... أو أصابهم مكروه !..

ومنهم من يجدف على الله ... ويزعم أنه طاهر مطهر ... فلماذا يُبتلى وهو من الأطهار ؟!

سيل جارف ... من اعتراضات الانسان على المقادير ... يَصّاعد منه كل يوم ... من هذا المنطق !..

والحقيقة الصارخة ... أن البلاء هو أعظم نعمة ... أنعم الله بها على كل انسان ... ليقيمه رغم أنفه على نقطة التوازن ... أو يرده عن انحـــرافه إلى الخط المستقيم ...

البلاء هو السوط الالهي ... يلهب ظهور الناس ... ليفروا من بُعدهم ... إلى ما يقربهم من ربهم ...

وهذا الناموس ... ناموس البلاء ... واسع الى ما لا نهـــاية ... متعدد بعدد أنفاس الناس ...

لا يمكن استقصاؤه ... ولا يستطاع احصاؤه ...

كما أن العطاء يتنزل على الانسان باستمرار ... كذلك البلاء يتنزل عليه باستمرار ...

ليكون الانسان ... موزوناً بميزان دائم ...

ولا يقدر على احصاء أنواع البلاء ... إلا الله ...

ومن هنا ... جاء الاحكام المعجز في التعبير عن قانون البلاء ... في قوله :

« **لتُبلَوُنّ في أموالكم وأنفسكم** » ؟!.

حتماً ... وباستمرار ... وبلا توقف ... كلكم أيها الناس ... تبلون ... في أموالكم ... وفي أنفسكم ...

والأموال ... تعبير عن جميع ما يحيط بالإنسان من مقومات الحيـــاة الخارجية . . .

والأنفس ... تعبير عن كل تركيبات الإنسان ... الداخلية ...

ولن تخرج حياة إنسان ما عن هذا ... اما شخصه ... نفسه ...

وإما ما يحيط به من أسباب الحياة ...

وعلى هذا يكون المعنى ... لتبلون جميعـــاً ... فرداً فرداً ... في جميع حياتكم ... فيما حولكم ... وما بداخلكم ...

لماذا ؟!. ليتحقق التوازن المطلوب ... في حيـــاة كل انسان كفرد ... والتوازن المطلوب في حياة كل أمة كجماعة ... والتوازن المطلوب في حياة كل البشرية ككل !..

فهناك بلاء شخصي ... يصيب الفرد ... في مقـــابل عطاء شخصي يصيب نفس الفرد ...

وهناك بلاء أممي ... أو دولي ... يصيب شعباً ما ... مقابل عطاء أصاب ذلك الشعب ...

وهناك بلاء عام يصيب البشرية ككل ... مقابل عطاء عام أصـــاب البشرية ككل !..

ادارة ... عالية ... ليس كمثل علوها شيء ...

ادارة ... إله ... قدّر . . وليس كمثل تقديره شيء !..

وهنا يصرخ صارخ في البرية . فلماذا اذاً يُبتلى الأنبياء ولا ذنب عليهم ... ولا بُعد منهم ليردهم إلى القرب منه ... لماذا ؟!

قلنا ان القانون العام ... ان البلاء ... لتحقيق التوازن في قيام الانسان ...

وهذا التوازن نسبي ... بنسبة عطاء كل إنسان ...

فمن كان عطاؤه أعظم ... كان بلاؤه أعظم ...

وهنا يُفهم الأمر ...

النبي ... أوتى فضلا عظيما ...

فالمطلوب منه ... أن يكون أعظم الناس قرباً من ربه ...

ودرجات القرب لا تتناهى ... فالبلاء بالنسبة اليه ... قوة ضاغطة ... ترفعه إلى أعلى فأعلى ... حتى يبلغ بالبلاء المنزلة التي لا تنبغي إلا له ...

وهذا أعظم انعام عليه ... في مقابل أعظم فضل عليه !..

ذلك أن الانسان فيه مواهب لا تحصى ...

لا يفجرها إلا البلاء ...

وهذا هو ينبوع عبقرية العباقرة ...

فإن الجاهلين يدهشون حين يجدون كثيراً من العباقرة ... أولى بلاء شديد ... فيعجبون ... ما أغنى عنهم عبقريتهم شيئاً ؟!.

والحقيقة ... ما تفجرت مواهبهم ... إلا بإشعال نار البلاء عليها ...

فالمطلوب استمرار البلاء ... لاستمرارية العبقرية !..

ولما كان الله ... هو أعلم بعباده ... كان هو أعلم بنوع وكمية البلاء ... اللازمة لكل انسان ... لتحقيق التوازن فيه ومنه ...

فإذا كان الناموس الذي ينتظمهم جميعاً هو ... « **لتبلون في أموالكم وأنفسكم** » ...

فإن نسَب ... هـــذا البلاء ... بالنسبة لكل فرد ... مقدرة تقديراً محكماً ... بما يتناسب مع حقيقته ... وهذه لا يعلمهـــا إلا الله ... الذي ركبه ... ويعلمه ...

وآية أخرى ... تتفجر من قانون البلاء ...

أن البلاء ... يظهر المكنون ... من شر أو خير ... في حنايا النفوس ...

« **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** » .

تُضرب آناً بالشر ... وآناً بالخير ...

لتتفجر منك خفايك من حناياك !..

« **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه** »

« **حتى يميز الخبيث من الطيب** » .

كل انسان يَدّعي دعاوى عريضة ... فلا بد من ضربه بالبـــلاء ... لتظهر الحقيقة !..

ولنأخذ مثلا ... تلك التجربة الكبرى ... تجربة بعثة رسول الله ... صلى الله عليه وسلم ...

« **بعثتك لأبتليك وأبتلي بك** » .

مواهب عليا لا حصر لهـــا ... كانت مكنونة ... في تركيب محمد ... تفجرت كلها ... وظهرت ... للعيان ... بابتلائه بمن بُعث فيهم ...

ومواهب صاعدة لا حصر لها ... ظهرت ممن اتبعوه ...

ومواهب سفلى لا حصر لها ... ظهرت ممن ضادوه ...

فانظر إلى عجائب آثار قانون البلاء ... وكيف تكون ؟!.

وعجيبة أخرى من عجائب قانون البلاء ...

أن مصيبة الانسان المستمرة هو جسده ...

ولكن هذا الجسد من طين منتن ... فهو نزّاع إلى كل ما هو منتن ... وهو ما يسمى بلسان الشرائع ... الشهوات ...

فلكي تنزع الانسان من سلطان الجسد عليه ... يتحتم أن تنزع الجسد من سلطان الشهوات عليه أولاً ...

وهذا يتحقق بضرب هـــذه الشهوات ضرباً مستمراً ... مما يؤدي إلى اضعافها ... أو استئصالها ... وبالتالي يضعف سلطانها على الجسد ... فيضعف بالتبعية تأثير هذا الجسد على الانسان ...

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » ...

ضرب مستمر ... للشهوات ... بإضعافها ... بالانقاص ... حتى يؤدي ذلـــك ... الى ضعف تأثيرها على الجسد ... فيضعف تأثيره على الانسان ...

وهذا عين الرحمة بالإنسان !..

فالأمن ... حجاب ... فليضرب بشيء من الخوف ...

والشبع ... حجاب ... فليضرب بشيء من الجوع ...

وزيادة الأموال ... حجاب ... فليضرب بشيء من النقص ...

وزيادة الأنفس ... حجاب ... فليضرب بشيء من النقص ...

وزيادة الثمرات ... حجاب ... فلتضرب بشيء ... من النقص ...

هنالك ... تضعف الشهوات ... فيضعف سلطانهـــا على الجسم ... فيضعف سلطان الجسم على الانسان ...

هذه نعمة جليلة ... من نعم البلاء ...

وسياط مشرعة بيد القدرة ... تلهب بها الشهوات وتطاردها أبداً !..

هذا أسلوب ... وأسلوب آخر هو التكاليف ...

الصوم ... مثلاً ... يوقف تماماً سلطان الشهوات على الجسم ... فيوقف سلطان الجسم على الانسان ... ما دام صائماً ... فتجد الروح فرصتهـــا الذهبية ... لتحلق إلى ربها ...

« يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » !..

وأسلوب آخر ... يتفجر من البلاء ... هو كشف الحقيقة للناس ...

مثال ذلك ... ذلك الدعيّ الأفاك ... المسمى فرعون ...

كائن تافه ... ادعى الألوهية والربوبية « **أنا ربكم الأعلى** » ...

وأكره شعبه على تلك الأكذوبة الحقيرة ...

فابتلاه الله ... بموسى ...

وضربه به ... وعصـــا موسى ... اشارة إلى أنه مستعمل من الله ... لضرب فرعون ...

ودارت القصة وصراعاتها ... وانكشفت الحقيقة ... وعلم الناس جميعاً... بإغراق هذا الدعيّ ... ان لا إله إلا الله .

وكم من فراعنة أضلوا شعوبهم ... وزعموا لهم المزاعم ...

فلما أخذهم الله ... انقشعت الحجب ... وتلألأت الحقائق ...

وعلى هذا نجمل الإجابة على السؤال الخالد : لماذا البلاء ؟!

فنقول ... البلاء قانون أبدي ... لتحقيق التوازن في تكوين الإنسان كفرد ... وتكوين الأمم كمجموع ... وتكوين البشرية ككل ...

أي لرد الأفراد ... والأمم إلى الخط المستقيم ...

ثم البلاء قانون مقابل قانون العطاء ...

ثم البلاء يفجّر المواهب المكنونة في الأفراد والشعوب ...

ثم البلاء نسبي ... بنسبة عطاء الانسان ... أو عطاء الأمم ...

ثم البلاء متعدد بتعدد أحوال الأفراد ...

ثم البلاء لإظهار المكنون من شر أو خير في الأفراد ...

ثم البلاء لتحرير الانسان من سلطان الشهوات عليه ...

ثم البلاء لإظهار حقائق عليا أخفاها المجرمون عن النـــاس ... كحقيقة التوحيد ...

ولما كان الشيطان بالمرصاد للإنسان ...

تحتم أن يكون البـــلاء بالمرصاد للشيطان ... ليخلص الانسان من سلطان الشيطان ...

ولما كان الهوى ... إله يُعبد من دون الله ...

تحتم أن يهوي البلاء باستمرار على الانسان ... ليحرره من هواه ...

فالبلاء ... أعلى أنواع الانعام على الانسان ...

لأنه يحطّ الخطايا ... ويفجر المواهب ... ويرفع الدرجات ... ويحرر الانسان من شهواته وهواه ... ويرده إلى وليه ومولاه !..

فالبلاء ... فيه عطاء أعظم مما في العطاء من عطاء ...

فالله ... يعطي في البلاء ... أضعاف أضعاف ما يعطي في العطاء ...

« انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » !..

والبلاء ... سبيل الصعود ... إلى أعلى الأعالي ...

بعكس العطاء ... فقد يكون سبيل الهبوط إلى أسفل الأسافل ...

فكم من عبد ... كان العطاء له حجاباً ...

وكم من عبد ... كان البلاء له مآباً ...

والآن ... لماذا هذا السبح الطويل ... في بحار ... الحياة ... والانسان والبلاء ؟ ! .

انما خضنا هذه الغمرات كلها لنصل إلى مفتاح شخصية أيوب ... عليه السلام ...

الذي اتخذه الله ... مثالاً ... خالداً ...

وبرهاناً للناس ... يبرهن لهم ... أن في البلاء عطايا وهدايا ... ودرجات ... ومنازل ... ومفجراً يفجر مواهب الانسان ... ويظهر المكنون من صفاته العليا ...

ويعلم الناس جميعاً ... مَن أيوب ؟!.

وما هي الحقيقة الأيوبية ؟!.

أيوب ... في مقام ... العطاء ...؟!

عرياناً . . .

يخرج الانسان من بطن أمه . . .

اشارة إلى فقره التام . . . فهو لا يملك شيئاً . . .

وجاهلا . . . يخرج من بطن أمه . . .

إشارة . . . إلى أنه أجهل المخلوقات . . . ما لم يعلمه الله . . .

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم .

« لا تعلمون شيئاً » ! . .

وعاجزاً . . . يخرج الانسان من بطن أمه . . .

إشارة . . . إلى ضعفه التام . . .

فليس أعجز ولا أجهل . . . من الانسان . . . بين الكائنات . . . ساعة ولادته ! . .

وبالتدريج . . . يمنحه الله . . . القوة . . . ويستوي رجلا . . . أو امرأة . . .

ويمنحه الله . . . أسباب المعيشة . . . فيصبح ذا مال . . .

ويزوجه . . . فيصبح ذا مال وبنين ! . .

ويجعل له وضعاً في الحياة . . . فيصبح ذا سلطان وجاه . . .

وبالتدريج كذلك . . . ينسى . . . ما كان عليه ساعة ولادته . . .

ويستقر في وهمه . . انه هكذا كان ... ولم يحدث أنه لم يكن شيئاً !..

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ؟!.

ويستمر الانسان في وهمه هذا ... حتى يفاجأ بالموت ... فيعود كما كان ...

ويخرج من الحياة ... عرياناً ... كما دخلها عرياناً ...

ويترك كل ما يملك ... ولا يستطيع أن يحمل معه شيئاً ...

سواء في ذلك الملوك والصعاليك ...

« ولقد جئتمونا فرادي كما خلقناكم أول مرة .

« وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » ...

فما معنى هذا ؟!.

معناه كبير ... وخطير ...

ان الانسان فقير ...

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله .

« والله هو الغني الحميد » !..

وأعلن الله تلك الحقيقة الكبرى ... الينا ... في ذلك الحديث القدسي ... الجامع المانع :

« يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم .

« يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم .

« يا عبادي ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسُكم » ...

كلكم ؟!. فهو ناموس عام ... ينتظر عموم العباد ...

كلكم ... ضال ...

كلكم ... جائع ...

كلكم ... عارٍ ...

ماذا نفهم من هذا ؟!.

نفهم أن ... الحياة ... هبة ...

« يهب لمن يشاء إناثاً .

« ويهب لمن يشاء الذكور » !..

فإذا كان الأصل هبة ... فالفروع هبة كذلك ...

فكل ما أوتينا من أسباب الحيـــاة ... هبة ... من الله لنا ... بنسب مختلفة ...

ولكن الانسان يَنسى دائماً ... تلك الحقيقة !..

إلا الذين آمنوا ... فانكشفت لهم تلك الحقيقة ... ولم تغب عن أعينهم ...

وأدركوا ... أن الله ... وهب لهم الحياة ... وهب لهم أنفسهم ...

ووهب لهم ... أسباب الحياة ... وهب لهم أموالهم ...

وأدركوا ... أن الذي وهبهم الحياة ... يملك متى شاء سحب هذه الحياة منهم ...

وأن الذي وهب لهم ... أموالهم ... يملك سحبها في أي حال ...

وكلما زاد إيمان الانسان ... زاد علمه بتلك الحقيقة ...

حـــتى إذا جئنا إلى الأنبياء ... كانت تلك الحقيقة ... من الحقائق البسيطة عندهم ...

فهم ... يتامى ... أبداً ...

فقراء ... أبداً ...

مهما أوتوا ... في أموالهم وأنفسهم !..

« ألم يجدك يتيماً فآوى .

ووجدك ضالاً فهدى .

« ووجدك عائلاً فأغنى » ؟!.

حقيقة ... عندهم بسيطة ...

ولما كانت الحياة ... هبة ...

ومقومات الحياة ... المعبر عنها بالأموال هبة ...

كان الناموس العام ... أن يقع البلاء ... في هذين العنصرين ... الحياة ... والأموال ...

الكائن الآدمي ... ومقومات الآدمي ...

« لتُبلَوُن في أموالكم وأنفسكم » !..

ولما كان الانسان ... يحتاج دائماً ... إلى نموذج عملي ... من جنسه ... يستطيع أن يفهم ...

اختار الله ... مثالاً عملياً ... هو نبي الله أيوب ...

ليكون ذلك المثال الخالد ... ليفهم الانسان تلك الحقيقة ...

ان الحياة ومقوماتها ... مجرد هبة ... من الوهاب ...

ولنبدأ الآن ... مع ذلك المثال ... خطوة خطوة ...

خرج أيوب ... من بطن أمه ... كما يخـــرج كل مولود ... عارياً ... حافياً ...

ثم أعطاه الله ... عطاءً واسعاً ...

فكان من أغنى أغنياء الجهة التي يعيش فيها ...

وقيل انها كانت قريبة من الفرات ...

وإليك إحصائية عن ثروته ... كما وردت عند أهل الكتاب :

« كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب .

« وكان هذا الرجل كاملاً ومستقيماً ، يتقي الله ، ويحيد عن الشر .

« وولد له سبعة بنين وثلاث بنات .

« وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم ، وثلاثة آلاف جمل ، وخمسمائة فدان بقر ، وخمسمائة اتان ، وخدمه كثيرين جداً .

« فكان هذا الرجل أعظم كل بني المشرق » .

فهو أغنى أغنياء الجهة ...

مساحات شاسعة من الأرض ... عليها أعداد هائلة من الأنعام ...

وأعداد ضخمة من العمال والخدم ...

وفوق هذا وذاك ... أعطاه الله ... سبعة بنين ... وثلاث بنات ...

هذا عن العطاء الظاهر ...

فماذا عن العطاء الباطن ؟!.

« وكان هذا الرجل .

« كاملاً ومستقيماً .

« يتقي الله ويحيد عن الشر » .

انها صفات نبيّ ...

أما الاستقامة ... « فاستقم كما أُمرتَ » وهذا هو الكمال ... أن تكون الاستقامة ... كما أمر الله ...

وأما التقوى ... « يا أيها النبي اتق الله » ... وعلامتهـــا « يحيد عن الشر » ...

وها هنا ناموس ... من نواميس الله ... في الأنبياء ...

العطاء ... عطاآن ... ظاهر وباطن ...

والانعام ... انعامان ... ظاهر وباطن ...

« وأسبغ عليكم نعمه » ظاهرة وباطنة » .

العطاء الظاهر ... هو سائر النعم الظاهرة ... أي الدنيوية ... المادية ...

والعطاء الباطن ... هو سائر النعم الباطنة ... من ايمان بالله ... وكتبه ... ورسله ... واليوم الآخر ... والقدر خيره وشره ... والعلم بالله ... والعلم بأسرار الحياة ... والامتياز العقلي ... والمواهب العليا ... والحب في الله ... والشوق اليه ... والخوف منه ... والطمع فيه ... إلى ما لا يتنـــاهى من العطايا الباطنة ...

والعطاء الظاهر ... قليل بالنسبة إلى العطاء الباطن ...

نسبة إلى العطاء الباطن ... كقطرة إلى بحر ...

أو بنسبة الدنيا إلى الآخرة ...

أو بنسبة المحدود إلى اللامحدود ...

أو بنسبة الجسد إلى الروح ...

والعطاء الظاهر ... يُعطى للجميع ...

وأما العطاء الباطن ... فلا يعطى إلا لمن يحبهم الله ...

« ان الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب .

« ويعطي الدين لمن يحب » .

فالناس في عطاء الدنيا سواء ... تُوزع عليهم ... بنسب محددة لكل منهم عند الله ...

لا تفريق بينهم بسبب ايمان أو كفر ...

أما العطاء الباطن ... فيُعطى للمؤمنين ... ولا يصل للكافرين ... إلا إذا تابوا عن كفرهم وآمنوا ...

والناس – من جهل أكثرهم – أكثرهم يعتبرون العطاء الظاهر هو العطاء ... لأنه منظور ...

ومن جهلهم لا يقيمون وزناً للعطاء الباطن ... لأنه غير منظور !..

ومن هنا جعلوا لهم نَسَباً ...

فمن كان ذا مال وبنين ... فهو عندهم ذا حظ عظيم ... كما قالوا عن قارون :

« إنه لذو حظ عظيم » !..

ومن كان قليل المال والبنين ... لم يكن عندهم ذا حظ عظيم !..

« لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

أي على رجل ذا مال وبنين ؟!.

وما زال هذا تقييم الناس ... وأكثر الناس لا يعلمون !..

والحقيقة المجردة ... أن العطاء الظاهر ... أحقر أنواع العطاء ...

والعطاء الباطن ... أعظم أنواع العطاء ...

فالنبوة ... وهي أعلى ما أنعم الله به على انسان ...

« الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » ...

هي عطاء باطن ...

والصديقية عطاء باطن ...

والشهادة عطاء باطن ...

والصلاح عطاء باطن ...

وإنما تأتي عظمة العطاء الباطن ... انه عطاء مطلق ... ممتد ... خالد ...

« والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » !..

بينما العطاء الظاهر ... ينتهي بانتهاء حياتك الدنيا ... أو بسحبك منه بما نسميه الموت ...

أما العطاء الباطن ... فهو ممتد إلى ما لا نهاية ...

وثوابه ممتد ... **« خالدين فيها أبداً »** !..

وقد كشف الله لنا ... نسبة العطاء الظاهر إلى العطاء الباطن ... وكأن العطاء الظاهر لا شيء يُذكر بالنسبة إلى الباطن في قوله :

« زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب .

« قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » !..

مقارنة لطيفة جداً ...

كل العطاء الظاهر بأنواعه ... النساء ... البنين ... القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ... الخيل المسومة ... الأنعام ... الحرث ...

ذلك متاع الحياة الدنيا ... ذلك كله ما يحقق لكم المتعة واللذة في الحياة الدنيا ... وذلك أقصى ما يُعطى ظاهراً ...

ثم يطرح سؤالاً على كل إنسان ليلفته ويفهمه أن ذلك كله حقير ولا شيء ... بالنسبة إلى العطاء الباطن ...

أؤنبئكم بخير من ذلكم !!.

أأكشف لكم حقيقة ستتعجبون لها طويلاً ؟!.

أأخبركم بما هو أعظم من ذلك كله ؟!

للذين اتقوا عند ربهم ... الآتي :

جنات تجري من تحتها الأنهار ...

فأين هذه الحقارات الدنيوية إلى ما في الجنات من نعيم ؟!.

خالدين فيها ... وهنا تتلاشى العطايا الدنيوية تمـــاماً ... مهما بقيتَ في قصورك وكنوزك ونسائك في دنياك ... انما هي سنين وتُنْزع منها وتُلقى بعيداً عنها في الحفرة ...

أما في الجنات ... فأبداً ... خالدين فيها ... فأين بضع سنين ... من ملايين السنين ؟.. أين القطرة من البحر ؟!.

وأزواج مطهرة ... جميلات ناعمات خالصات من أي نقص ... فالمتعة بهن على الغاية من اللذة والجمال ... فأين هذا من متعة نساء الدنيا السريعة الزوال... المليئة بالمسئولية والمتاعب ؟!

وأخرى ... أعلى وأعلى ... ورضوان من الله ... يُحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ...

وها هنا تتم النعمة ... ويحلو النعيم ...

كأن الله يريد أن يقول للناس ... ظننتم أن العطاء الظاهر هو العطاء ... وغفلتم عن حقارته بالنسبة إلى العطاء الباطن ...

والحقيقة أن نسبة الظاهر إلى الباطن ... كنسبة القطرة إلى البحر ...

وإليكم إحصائية بأعلى أنواع العطاء الظاهر ... وإحصائية بأعلى أنواع العطاء الباطن ... وبالمقارنة تفهموا أن الآخرة أرقى وأخلد وأجل من الدنيا ... حقاً وصدقاً ...

استبان الآن أن النعم الظاهرة ... قليلة بالنسبة إلى النعم الباطنة ...

وهذا يفسر لك ... لماذا أعظم الله حظ الأنبياء من النعم الباطنة ... وقلل حظهم من النعم الظاهرة ...

لأنه يعطيهم ما هو أعلى ... والأعلى هو الانعام الباطن ...

ويفسر لك ... لماذا يعطي الله من الدنيا المجرمين حظاً عظيماً ... ويقلل أحياناً حظ المؤمنين منها ؟!

لأنه آثر المؤمنين بالأنعام الباطن... وهو أكبر كثيراً من الانعام الظاهر...

وألقى الفتات الحقير ... إلى المجرمين ... كما تُلقى بقايا المائدة لحقارته ... إلى القطط والكلاب ...

« الدنيا جيفة وطلابها كلاب » ...

فيتهارجون ويتنازعون ذلك الفتات ... تنازع الكلاب !..

وليس معنى هـــذا ... أن كل أسباب الغنى الدنيوية للمجرمين ... وكل أسباب الفقر الدنيوي للمؤمنين ...

كلا ... فالدنيا ... مفتوحة للجميع ... تتطاوع أسبابها للمجرمين ... والمؤمنين على حد سواء ...

« كُلاً نُمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »

اطلب الدنيا ... تجدها ... بصرف النظر عن كونك مؤمناً أو مجرماً ...

وكان ذلك كذلك ... لتقع الحكمة من الاختبار ... ويكدح الجميع في الحياة ابتغاء الرزق ...

فلو أعطيت الدنيا للكافرين وحدهم . . لكفر الناس جميعاً ...

ولو أُعطيت الدنيا المؤمنين وحدهم ... لآمن الناس جميعاً ...

وهذا نوع الجاء ... ينـــافي الحكمة ... من اعطاء الانسان حرية الاختيار ...

« أهُم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيا ورحمت ربك خير مما يجمعون .

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون .

« ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون .

« وزُخْرفاً وإن كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيــــا والآخرة عند ربك للمتقين » ؟!.

ما هذا ؟!.

انه الله ... يكشف لنـــا ... نحن الأطفال الكبار ... الحقيقة من كل شيء ...

افهموا هذا واعملوه ...

لولا أن يكون الناس أمة واحدة ... لولا أن يكونوا جميعاً كافرين ... لجعلنا الدنيا بزخرفها للكافرين ... وهذا لن يكون ... لأنه الجـــاء إلى الكفر ...

والعكس دائماً صحيح ... لولا أن يكون الناس أمة واحدة ... ان يكونوا جميعاً مؤمنين ... لجعلنا الدنيا لمن آمن وحجزناها عن الكافرين ... وهذا كذلك الجاه ... لا نرضاه ...

وإنمـــا الدنيا لهؤلاء وهؤلاء ... ليؤمن وليكفر من شاء ... مجرداً من الضغوط ...

هذا أعظم أنواع الحكمة ... من التخطيط الالهي لفكرة الحياة الدنيا ...

ثم ماذا ؟!. ثم القسمة ... النصيب المحـــدد ... من الرزق ... لكل إنسان ... حدّده الله ... بنسب معلومة له ... « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا** » ...

ثم لماذا التفاوت بينهم ... لماذا لم يسوّ بينهم ؟!

الجواب ... « **ورفعنـــا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيا** » ... هذا هو موتور الحيـــاة ... محرك الحياة كلها ... هذا التفاوت ... يجعل الجميع في خدمة الجميع ... وتموج الحياة موجاً !..

فلو تساووا ... لتعالى بعضهم على بعض ... ولتوقفت الحياة كلها ...

فلولا حاجة الانسان ... ما سعى إنسان إلى خدمة إنسان !..

عجائب ... تخر لها العقول سُجّداً ! .

ان أعظم وأكبر وأعلى ... نعمة ... أنعم الله بهـــا على الانسان ... هو انزال القرآن !..

نعود ... إلى صاحب هذا الكتاب ... نبي الله أيوب ...

أوسع الله له العطاء الظاهر ... في دنيـــاه ... فهو مليونير ... واسع الثراء ...

وأوسع له في الذرية ... سبعة من البنين ... وثلاث من البنات ...

وإلى جوار ذلك ... أوسع له من العطاء الباطن ... فهو نبي ... وإذا قيل نبي ... كان مفهوماً ... ان العطاء الباطن ... جاءه من أعلى الآفاق ... وأوسع الجهات ...

فهو كما قالوا وأوجزوا « وكان هذا الرجل كاملا ومستقيماً » !..

فالتجربة هنا رائعة ...

رجل ... أوسع الله له العطاء الظاهر ... وأوسع له العطاء الباطن ... فماذا كان منه ؟!.

كان رجل حياة ... بكل ما في الحياة من اهتزازات ...

فالأنبياء يحيون الحياة ... في تكاملها واهتزازاتها كلها ...

لا يعطلون منها موجة ... ويرسلون أخرى ...

وإنما هم كالبحر ... تموج أمواجه كلها ... وتتعالى ... وفي النهاية يتوازن البحر كله ... بحراً موزوناً ...

وهذا هو كمال الأنبياء ...

كالشجرة الطيبة ... كل أوراقها وفروعها وأزهارها وثمارها ... يانعة ...

فإذا امتزت جميعها ... امتزت في توازن وانسجام وجمال ...

وهكذا كان أيوب ... مزارعه تنتج أحسن الانتاج ...

وأسراب الغنم والبقر والإبل والحُمُر ... تُربى أحسن تربية ...

ومئات العاملين في تلك المــزارع ... يكدحون ويستخرجون من طيبات المزارع ...

وكان رجل مجتمع من الطراز الرفيع ...

ذائع الصيت ... شهيراً بين أقرانه ...

سباقاً إلى كل خير ...

دائم الصدقات ...

دائم التوجيه إلى الخيرات ...

وكان كبير أسرة محبوباً ... بين أولاده وبناته ... وأحفاده ... زوجهم ... وجعل لكل منهم منزلاً ... وقسم الأعمال بينهم ...

وهو في كل أحواله ... يتقي الله ... ويحيد عن الشر ...

فهو ... غنيّ شاكر ذاكر ... يعيش حياته كلها ... لله ...

وامتد توجيهه الرفيع ... إلى أولاده ... وبناته ...

قال أهل الكتاب :

« وكان بنوه ، يذهبون ويعملون وليمة في بيت كل واحد منهم في يومه .

« ويرسلون ويستدعون أخواتهم الثلاث ، ليأكلن ويشربن معهم .

« وكان لما دارت أيام الوليمة ، ان أيوب أرسل فقدسهم .

« وبكر في الغد وأصعد محرقات على عددهم كلهم .

« لأن ايوب قال ربما أخطأ بنيّ ، وجدفوا على الله في قلوبهم .

« هكذا كان ايوب يفعل كل الأيام » .

كل الأيام ؟!. أي كل يوم ... كان يقدم الذبائح كل يوم دون أن يهمل هذا يوماً واحداً ...

وما ظنك بأسرة كبيرها ... نبيّ كريم ... كيف تكون ؟!.

الخلاصة ... نبيّ غنيّ تقيّ ...

حياته كلها لله ...

وأسرة طيبة متعاونة متحابة ...

ورجل أعمال من الطراز الرفيع ... يؤدي حق الله في العمل ...

توازن تام ... وصراط مستقيم ...

وشكر للنعمة ... قلباً ... وقالباً ...

وظاهراً ... وباطناً ...

لقد كان عليه السلام ... مثالاً جميلاً ... للغني الشاكر !..

إنا ... وجدناه ... صابرا ...!؟

قضية . . .

رائعة ... شغلت الأقدمين ... مجملها ...

هل الغني الشاكر ... أفضل ... أم الفقير الصابر ؟!

وانتصر فريق للغني الشاكر ... وفريق للفقير الصابر ...

واحتج هؤلاء وهؤلاء ... بأدلة من الكتاب والسنّة ...

وألّفوا في ذلك الكتب ... وحبروا المقالات تحبيراً ...

وما زالت القضية مطروحة ... ما دام في الحيـــاة ... غني وفقير ... وملك وحقير ...

وكل انسان تعتبر حياته ... جواباً على ذلك السؤال الخطير ...

« فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن .

« وأما اذا ما ابتلاه فقدّر عليه رزقه فيقول ربي أهانن » !..

تعليق من الانسان ... يثير الضحك !..

إذا أوسع له المال ... قال : ربي أكرمني !..

وإذا ضيق عليه المال ... يقول : ربي أهانني !..

هكذا ... تفكير الانسان ... مقياس الأمور عنده ... المال ... هو معيار الاكرام ... ومعيار الاهانة ...

وهذا غير صحيح ... والصحيح هو :

« كلاَّ ... بل لا تكرمون اليتيم » .

كلا ... أيها الانسان ... ليس المال دليل اكرام ولا إهانة !..

وإنما هو مجرد سؤال في الامتحان ...

مجرد اختبار لعقل الانسان ... هل يحتجب بالنعمة عن المنعم ... أم يدرك ان المعطي هو الله ؟!

ولكن الانسان لا يسمع كثيراً الى الحقيقة ... انه دائماً يعيش في أوهامه وهواه !..

وفتنة المال ... هي الفتنة الكبرى ...

« لكل أمة فتنة » وفتنة أمتي المال » .

ذلك ان طبيعة النفس ما دامت في جسدها ... طبيعة اجرامية ...

فالاجرام كامن في النفس ... يترقب الفرصة ليتفجر ...

« بل يريد الانسان ليفجُرَ أمامه » !..

بل حقيقة الانسان انه يريد الفجور مستقبلاً ... يترقب الفرصة التي تسمح له بالفجور ...

لأن الشهوات ترغب أن تتحقق ... فهي مكبوتة مؤقتاً ... ولو فتحت لها لانطلقت ...

وإلى ذلك يشير قوله :

« فألهمها فجورها وتقواها » ...

يبدأ بالفجور ... لأنه الطبيعة الأصيلة في النفس ... والتقوى تكتسب بعد ذلك ... بمخافة الله ...

ومن هنا تأتي خطورة المال ... وفتنته ...

لأن المال يعطي الفرصة كاملة للنفس ... لتحقق رغباتها وشهواتها ... وتفجر كما تشاء ...

فالانسان اذا ابتلي بكثرة المال ... فقد ابتلي بأشق بلاء ...

ويندر أن ينجح في الاختبار ...

لأن مصيبة المال ... انه مضاد للفضيلة ...

فلكي تكون فاضلاً ... يتحتم أن تتقيد بقيود التكاليف ... وتقف عند حدود الله لا تتعداها ... وهذا معناه كبح شهواتك ... بينما المال يناديك بإلحاح أن تحقق شهواتك ...

فالاغراء شديد ... والنفس ضعيفة ... لا تستطيع المقاومة دائماً ... وإن قاومت مرة أو مرات ... عادت فانهارت أمام الاغراء انهياراً !..

ويزيد الاغراء شراً ... ان الغنيّ يتجاوب له الناس سراعاً ... بينما يفرون من الفقير فراراً !..

وتلك فتنة في المال أخرى ...

فالمال يُفجر الشرور الكامنة في النفس تفجيراً ...

ولكي تمنع هذا التفجير ... عليك أن تناضل نضالاً كبيراً مستمراً ...

وهذا أعظم البلاء ...

وتلك الحكمة التي نسبت إلى عبد الرحمن بن عوف حين قال : « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » ... انما تشير إلى ذلك المعنى ...

وواقع الأغنياء يشير بأصابعه إلى تلك الحقيقة ...

فمن العسير ... أن يتفكك الأغنياء ... من ملذاتهم وشهواتهم ... لأنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم !..

ولست بذلك من القائلين بأن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر ... كلا ... وإنما فقط أريد تسجيل صعوبة النجاح في تجربة المال ...

وكلما زاد مالك ... كلما زادت متاعبك ... اذا أردت أن تكون تقياً !..

نصل من ذلك ... أن الله حين أثنى على أيوب عليه السلام بقوله : « إنَّا وجدناه صابراً » ... ليس معناه صابراً على الشدة وسحب الأموال والأولاد منه ... كما هو مشهور بين أكثر الناس ...

كلا ... وإنما معناه ... إنا وجدناه صابراً ... في أحواله كلها ... صابراً في سرائه ... صابراً في ضرائه ...

صابراً ... في نعيمه ... وثرائه ... وأولاده ... وحشمه ... وخدمه ... ومع تلك الاغراءات كلها ... كان صابراً على أوامرنا ... « يتقي الله ، ويحيد عن الشر » ... لم تطغه نعمة ... ولم يبطره مال ...

وإنما كلما نما ماله ... نما صبره على أوامرنا .. وشكره لأنعمنا ...

وهذا الوجه من الصبر ... هو أشق أنواع الصبر ...

فالصبر في الضراء ... كأس مُرّة ... يتحتم عليك أن تتجرعها ... رغم أنفك ...

أما في السراء ... أما وفي يديك وسائل الاستمتاع كلها تحت أمرك ... ومع هذا تخاف ربك ... ولا تستعملها فيما يغضبه ... ولا تعصيه بما وضع في

يدك من أموال ... وتصبر نفسك عن ذلك كله ... فهـذا هو أعلى أنواع الصبر ... وأشقه على النفس ... وأعظمها أجراً عند الله ...

فالأغنياء الشاكرون قليل ...

والأغنياء الصابرون أقل ...

فقوله سبحانه « إنّا وجدناه صابراً » ...

أي وجدناه دائماً صابراً ...

صابراً في السراء ...

ووجدناه صابراً في الضراء ...

فهو لذلك « نعم العبد » ...

لماذا ؟!. « إنه أوّاب » ... رجّاع الينا دائماً ...

ان أغدقنا عليه ... آب الينا ...

وإن سلبنا منه ... ما أعطيناه ... آب الينا ...

فلما نجح أيوب ... وكان صابراً في السراء ...

أدخله الله اختباراً آخر ... لينظر ماذا يكون حاله في الضراء ...

فكيف كانت تلك التجربة الرهيبة ؟!.

سلب ... الأموال ... والأولاد ...؟!

الناموس ...

« لتُبلَوُنّ في أموالكم وانفسكم » ...

وهذا الناموس نسبي ...

فبالنسبة لعموم الناس ... يكون بسحب شيء من الأموال والأنفس ...

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع .

« ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » ...

هذا بالنسبة لعموم الناس ... يكون البلاء ... بشيء ... أي بسحب نسبة معينة ... أي بإنقاص الأموال ... وإنقـــاص الأنفس ... بالمرض أو الموت ...

أما بالنسبة إلى الخاصة ... فبلاؤهم أشد ... فقد تسحب أكبر نسبة من الأموال والأنفس ...

وأما بالنسبة الى الأنبياء ... فأشد ... فقد يكون البلاء ... بسحب الكل ... كل الأموال ... وكل الأنفس ...

« أشدكم بلاءً الأنبياء ...

« ثم الأمثل فالأمثل » !..

– أو كما قال –

وقد كان... وطُبِّق ذلك الناموس... على نبي من الأنبياء... اسمه أيوب...

فسُحبت منه ... جميع أمواله ...

وسُحبت منه ... جميع أولاده !..

ليس بالتدريج ... ولكن فجأة ... ومرة واحدة !..

وأدخل أيوب ... التجربة ... في أعنف صُورها ..:

فكيف كان ذلك ؟!.

« وكان ذات يوم ، وابناؤه وبناته ، يأكلون ويشربون ... في بيت أخيهم الأكبر .

« ان رسولا جـــــاء الى أيوب وقال : البقر كانت تحرث ، والاتن ترعى بجانبها .

« فسقط عليها السبئيون ، وأخذوها ، وضربوا الغلمان بحد السيف .

« ونجوت أنا وحدي لأخبرك » !..

لقد بدأت المفاجآت ... ها هو يفقد كل ماله من البقر والحمير في لحظة ...

أغار اللصوص عليها وأخذوها ... وقتلوا جميع الغلمان ... إلا هذا الغلام الذي هرب من وجوههم ... وجاء إلى أيوب ليخبره !..

فما أن تلقى أيوب تلك الصدمة ... حتى فاجأته صدمة أخرى ...

« وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال :

« نار الله سقطت من السماء ، فأحرقت الغنم والغلمان ، وأكلتهم .

« ونجوت أنا وحدي لأخبرك » .

لقد احترقت آلاف الأغنام وعشرات الغلمان الرعاة في لحظة ...

صاعقة صعقتهم ... وأكلتهم ...

لقد ضاع كل شيء في لحظة !..

وكانت صدمة أكبر من أختها ... وإذا بثالثة أخرى أشد وأعتى ...

« وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال :

« الكلدانيون عبئوا ثلاث فرق ، فهجموا على الجمـــال ، وأخذوها ، وضربوا الغلمان بحد السيف .

« ونجوت أنا وحدي لأخبرك » !..

مصيبة ثالثة ... وداهية رهيبة ...

ألوف الجمال نُهبت ... والغلمان قُتلت ...

ولم يبق إلا هذا الغلام ... الذي وجهه لا يأت بخير ... جاء بنبأ المصيبة إلى أيوب ...

ثم ماذا ؟!. ثم داهية الدواهي ... ثم الصدمة الرابعة ...

« وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال :

« بنوك وبناتك ، كانوا يأكلون ويشربون ... في بيت أخيهم الأكبر .

« وإذا ريح شديدة ، جاءت من عـــبر القفر ، وصدمت زوايا البيت الأربع .

« فسقط على الغلمان ، فماتوا .

« ونجوت أنا وحدي لأخبرك » !..

لقد هلك الأولاد جميعاً في لحظة ... سبعة بنين ... وثلاث بنـــات ... هلكوا في لحظة ...

انها عملية استئصال ...

كل الأموال هلكت ...

كل الأولاد هلكوا ...

وانقضّت تلك المصائب ... في وقت واحد ...

وجاءته أخبارها في وقت واحد ...

وهنا تشتد التجربة ... وتبلغ ذروتها من العنف ...

أما الأموال ... فدُمرت تدمـــيراً ... اما بالسلب والنهب ... وإما بالاحراق !..

وأما الأولاد ... فخرّ عليهم السقف من فوقهم ... فأصبحوا خامدين !..

ما هذا ؟!.

هذا شيء مما يُبتلى به الأنبياء ... ليعلم الناس ... مَن الأنبياء ؟!.

فلو لم يكن في حياة أيوب إلا هذه وحدها ... لكانت كافية ... لأن يرتفع بها إلى أعلى الدرجات عند ربه ...

فكيف ... وهذه موجة واحدة ... من أمواج البلاء ... التي صُبّت على أيوب صَبّاً ؟!

ثم انظر الى الزلزلة ... تتبعها زلزلة ... تتبعها زلزلة ... تتبعها زلزلة ...

مفاجأة ... سلب الأبقار وقتل رعاتها ...

وفي نفس الوقت ... مفاجأة إحراق الأغنام ورعاتها ...

وفي نفس اللحظة ... مفاجأة نهب الجمال وقتل رعاتها ...

ثلاث صدمات كافية لخلخلة أي عقل ... وزلزلة أي قلب ...

ثم رابعة أعنف وأعنف ... مفاجأة موت جميع أولاده الذكور والإناث في لحظة ... وهم على مائدة الطعام !..

هنالك ... ظهر للعالمين ... من أيوب هـــذا ... وما معدنه ... وما حقيقته ؟ !.

ان الأنبياء ... هم الرجال ... أعلى الرجال ...

ان الأنبياء ... هم الأبطال ... أعظم الأبطال ...

انهم حُمّلوا ... ما تنوء به الجبال ...

فحملوه ... فكيف حملوه ؟!

بالله ... حملوه !..

« واصبر ... وما صبرك إلا بالله » !..

أيوب ... يخر ... ساجدا ...؟!

الصبر عند الصدمة الأولى ...

عندما تنهال الضربات على رأس المبتلي ... يضطرب جهـــازه العصبي اضطراباً شديداً ... فيتخلخل منه كل شيء ... فتصدر عنه حركات هيستيرية وتشنجات عصبية فهو أشبه بمجنون لا يعي ما يقول ...

والإنسان يُلتمس له العذر في هذا ... لأنه ضعيف ... والمفاجأة فوق احتماله ...

وكم من إنسان أذهلته المفاجأة ... وأخرجته من دينه ...

فكيف والمصائب هنـــا ... قطعت دابر كل شيء ... ولم تدع لأيوب شيئا ؟!.

كل الأموال ... هلكت ...

وكل الأولاد ... هلكوا ...

وكل ذلك ... مجتمعاً ... في وقت واحد ...

وكل أنباء هذه المصائب توالت عليه مرة واحدة ...

فماذا كان من نبي الله ؟!.

قال أهل الكتاب :

« فقام أيوب ...

« وخرّ على الأرض وسجد .

« وقال : عرياناً خرجت من بطن أمي ، وعرياناً أعود إلى هناك .

« الرب أعطى ، والرب أخذ .

« فليكن اسم الرب مباركاً .

« في كل هذا لم يخطىء أيوب .

« ولم ينسب لله جهالة » .

هكذا يكون الأنبياء ... أبطال لا تزلزلهم الأحداث ... ولكن تزيدهم قرباً من ربهم !.

لماذا !؟ ... لأنهم يعلمون من الله ما لا نعلم ...

« وأعلمُ من الله ما لا تعلمون » !..

ماذا يعلمون من الله ؟!.

يعلمون علماً ... يكشف لهم جمال الشئون الإلهية ... فالعطاء منه جميل ... والأخذ منه جميل ...

فإذا أعطاهم ... شكروا ...

وإذا ابتلاهم ... صبروا ...

وشكر الأنبياء ... ليس كشكرنا معاشر العوام ...

وصبر الأنبياء ... ليس كصبرنا نحن الأقزام ...

وإنما من أفقهم الأعلى ... يشكرون ... ويصبرون ...

من أفقهم ذاك ... ينظرون ... فإذا شكروا شكروا ... على مستوى الكون كله ...

رأوا بحر الإنعام ... يسبح فيه كل شيء ... فشكروا الله ... أن أنعم على كل شيء ...

رأوا ... بحر البلاء ... يسبح فيه ... كل إنسان ... فصبروا أنفسهم مع الناموس العام ... الذي تحتم أن يسري في كل إنسان ...

شكرهم ... شكر كُلي ...

وصبرهم ... صبر كُلي ...

وهذا هو الفاروق بين شكرهم وشكرنا ... وصبرهم وصبرنا ...

وتلك أفاقهم العُلى ...

فلما فاجأته المفاجآت العاتيات المهلكات ... تلقاها ... من أفقه الأعلى ...

وتشعشعت لعيني قلبه ... أنوار الشئون الإلهية ...

وخرّ على الأرض ... وسجد !!!

ذلكم أيوب ... في حال مصائبه ... التي تخر لها الجبال هدّاً !..

خرّ لربه ساجداً !..

وسجود الأنبياء شيء وراء ما تدرك عقولنا ...

لهم مع ربهم أحوال .. فوق مذاقاتنا ... وأنى لنا إدراك ما لم نذق ... وما لا نفهم ؟!.

ذلكم أيوب ... عند الصدمة الأولى ...

وفي الحديث « **الصبر عند الصدمة الأولى** » ... وها هنا صدمات لا صدمة واحدة ... وضربات لا ضربة واحدة واحدة ...

ومع هذا تلقاها ... وكان أول تصرفاته ... أن خرّ لله ساجداً !..

سلوكهم أولئك الأنبياء ... على الغاية من الجمال والكمال ...

وهذا السلوك من نبي الله ... أيوب ... يرفعه رفعاً عظيماً ... فوق أعظم أبطال التاريخ على الإطلاق ...

فإن القوة أن تملك نفسك عند الصدمة الأولى ...

وها هنا أربع صدمات ... ما من صدمة منها إلا هي أكبر من أختها ...

أربع جائحات اجتاحت بنيان أيوب ... ودمرت له كل شيء ...

وأيوب يلقي بنفسه إلى ربه ... وقد عاد عرياناً كما خرج من بطن أمه ... فرداً واحداً ... كما خرج من بطن أمه ...

وها هنا تتفجر أنوار ذلك المقام ... من مقامات أيوب ...

المقام الأول ... « وكُلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً » ؟!

فرداً ؟!. ها هنا المفتاح ... كُلُّهم ... آتيه ... فرْداً ؟!.

ناموس رهيب عجيب غريب ...

كل منا ... يخرج من بطن أمه ... إلى الحياة الدنيا ... فرْداً ...

وكل منا ... يخرج من هذه الحياة ... عند الموت ... فرْداً !..

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرّة » !..

سبحان الله !.. ان النواميس تتلاقى في حقيقة رهيبة ...

فما معنى هذا ؟!

معناه هذه حقيقتك أيها الإنسان ... أخرجناك من بطن أمك ... فرداً. وأخرجناك من الحياة ... فرداً ...

ولا يُتصور افتقار أكبر من هذا الافتقار ...

خرجت من بطن أمك ... فرداً ... عرياناً ...

وتخرج من الحياة ... إلى القبر ... فرداً ... عرياناً !..

لتعلم ان كنت لا تريد أن تعلم ... أن حقيقتك هي الفقر ...

وهذا ما تحقق به أيوب ... حين قال :

« عرياناً خرجت من بطن أمي .

« وعرياناً أعود إلى هناك » .

والأنبياء حين ينطقون ينطقون حقاً ...

وحين يتكلمون يذيعون نواميس !.:

لقد أعيد أيوب إلى حقيقته ... وكُشطت الحجب ... وتلألأت الحقيقة سافرة ...

أيوب ... شأنه شأن كل إنسان ... خرج من بطن أمه ... عرياناً ...

ثم أضيفت اليه إضافات... أموال ... وبنين وبنات... هذه إضافات...

إذاً فلتُسحب هذه الإضافات فوراً ... ليَعُد أيوب كما كان ... فرداً عرياناً ...

وأيوب يعلم من الله مراده مما صنع به ...

وأن الله ... يريد أن يجعل منه مثالاً للناس جميعاً ...

يتعلم منه الناس ... أن حقيقة كل إنسان ... انه فرد عريان ... كذلك كان ... وكذلك سيخرج ... فلا داعي للنسيان !..

« وذكرى للعابدين » !..

صنعنا ما صنعنا بأيوب ... لتتذكروا جميعاً ... حقيقتكم ... **وكُلُّهم آتيه ... فرداً !..**

فماذا من المقامات العُلى ... غير ذلك المقام ... مقام الافتقار ؟!

المقام الثاني ... مقام الانكسار ...

لقد كان أيوب ... في عزّة ... بأمواله ... وأولاده ... وسلطان عظيم ...

وهذا خدش في كمال ذلك المقام من مقامات الأنبياء ...

فالأنبياء ... عزتهم بالله ... وحده ... لا شريك له في ذلك ..

ومع أن أيوب كنبي ... لا يتعزز إلا بالله ... ولا يرى لأمواله وأولاده مدخلاً في تلك العزة ...

إلا أن الله ... يريد أن يجرده تماماً ... من أسباب العزة الظاهرة ... لينظر أكان أيوب يتعزز بربه خالصاً ... أم يشرك أولاده وأمواله في ذلك ؟!

فسحقهم جميعاً ... فتلألأ أيوب ... خالصاً لربه ... وارتفع في مقـــام الانكسار لله ارتفاعاً كبيراً !..

المقام الثالث ... مقام الاضطرار ...

العوام يضطرون إلى الله ... في الشدة ... يتلمسون منه غوثاً ...

أما الأنبياء ... ففي اضطرار دائم ... في كل أحوالهم ...

ولمـــا كان وجود الأموال ... ووجود الأولاد ... يُوهم أن أيوب ليس مضطراً إلى الله ... لوفرة الأسباب في يديه ...

كان لابد من إظهار حقيقة أيوب ... للجميع ...

فسُحقت الأموال ... وسُحقت الأولاد ... فتلألأ أيوب ... مضطراً في أمره كله .. وصعد في ذلك المقام صعوداً كبيراً ...

وتشمشمت من قلبه « الرب أعطى ، والرب أخذ » ... ليس لي من الأمر شيء ... هو أعطاني الأموال والأولاد ... وهو أخذ ما أعطى ... فليس لي حين أعطيت من شيء ... ولا حين أخذ مني ما أعطيت من شيء !..

ثم أثنى على ربه ثناءً جميلاً : « **فليكن اسم الرب مباركاً** » ... أي تباركت ربنا وتعاليت !..

وظهرت بذلك ... وجوه من الحقيقة الأيوبية ...

هنالك في السراء والعطاء ... كان صابراً ... **يتقي الله ... « ويحيد عن الشر »** ...

وها هنا ... في الضراء والبلاء ... كان صابراً ... **« الرب أعطى ... والرب أخذ »** ... وأثنى على ربه ....

فأثنى ربه عليه ... ثناءً سرمدياً ...

« إنّا وجدناه صابراً .

« نعم العبد .

« إنه أواب » !..

ضرب ... الجسد ...؟!

أما الأموال . . .

فقد فنيت . . .

وأما الأولاد . . . فقد هلكت . . .

وأما أيوب . . . فقد عاد . . . كما وُلد . . . فرْداً . . .

والفرد . . . عنصران . . . روح وجسد . . .

إذاً فليضرب الجسد . . . ولتشتعل النار فيه . . .

وليدخل أيوب . . . ناراً تلظى . . . في الدنيا . . . لا يموت فيها ولا يحيى ! .

لماذا كل هذا ؟ !.

لأن مصيبة الإنسان . . . في جسده . . .

هذا الوعاء المنتن . . . من طين . . .

هو مصدر الشر كله . . .

تركيب يقوم على الخائر . . . فما في أمعائك إلا كمية من المنتنات . . . مثلها لتكون . . . وتشمخ بأنفك إلى السماء ! .

وكم يضحكني أن أرى رجلا عملاقا . . . يمشي مختالا . . . يكاد ينشق كبرا . . فأضحك وأقول في نفسي : آه لو يعلم هذا . . . ماذا يحمل في أمعائه . . . إذاً لتوارى خزيا ! .

ولكن رحمة من ربك ... أن يذمى الإنسان حقيقته ... ليستطيع أن يندفع في الحياة !.

فالجسد مصيبة الإنسان العظمى ... ومعبوده من دون الله ...

وهو المعمل الدائم الذي يعمل فيه الشيطان ...

وهو الدافع الأعظم لكل إجرام ...

فلو تصورنا إنساناً بلا جسد ... ما وقع منه شر ولا شرك ولا كفر ...

وإنما هو الجسد ...

نزّاع إلى أصله ... إلى الأرض ... يشدك إليها شداً.

وحين قيل : « **أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك** » ...

كان المراد ... جسدك ... لأن النفس تركيب من روح وجسد ... والروح قوة حياة ... والجسد هو الوعاء المنتن لهذه الروح العلوية ... فهو سبب تلوثها ... وسبب عذابها ... وسبب إضطرابها وقلقها ...

أي أعدى أعدائك جسدك !.

والإنسان ... كجسد ... طبق الأصل من الحيوان ...

تنتظمه جميع نواميس الحيوان ... مع اختلاف طفيف في النِسَب ...

كما يأكل الحيوان ويشرب ... يأكل الإنسان ويشرب ...

وكما ينكح الحيوان ... ينكح الإنسان ...

وكما يتناسل ... يتناسل ...

وكما يقضي الحاجة ... يقضي الإنسان الحاجة ...

إلا أن الإنسان ... تميز عن الحيوان بالنطق ... فهو حيوان ناطق ...

ثم تميز بالعقل ... فهو حيوان عاقل ...

فشارك الإنسانُ الحيوان ... ثم طُلب منه أن يرتفع عنه بالعقل ... إلى مرتبة أعلى ... هي مرتبة الآدمية ...

فأبى أكثر الناس ... إلا الحياة الدنيا ... الحياة الدنيئة ... حيـــاة الحيوان ...

ورفضوا الارتفاع ... إلى الحياة الأعلى ... حياة الآدمية ...

فسُلطان الجسد على الإنسان هو السلطان الأعظم ... يأمر فيطاع ...

وعلم الشيطان هذا من الإنسان فأوغل فيه من جسده ...

« **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم** » !!.

ولم يجد المذكور صعوبة ما في مهمته ... فالجسد مزرعة خصيبة لوساوسه ونزعاته وهمزه ونفخه ونفثه ...

ومهمة الشيطان هي الإثارة ... اثارة نوازع الجسد ومطالبه ...

ما عليه إلا أن يثير ... فاذا بالجسد يشتعل بالرغبة ويندفع إلى الشر ...

« **وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي** »

إلا أن أثرتكم ... فاستجبتم لإثارتي !.

وأقوى أدواته ... الجنس ... يثير الرجال بالنساء ... ويثـــير النساء بالرجال ...

فيتداعى هؤلاء إلى هؤلاء ... وهؤلاء إلى هؤلاء ... سراعاً ...

« **ما تركت ورائي فتنة أشد خطراً على الرجال من النساء** » .!

ذلك أن المذكور ... يثير الرغبة ... ويحرك الشهوة ... وهي كامنة في الإنسان ... تنتظر من يشعلها فتشتعل !.

وأخطر منها ... لقمة العيش ... لارتباطها بكينونة الجسد ... فكم من أخلاق ضاعت ... وقيم انهارت بسبب لقمة العيش هذه ...

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء »

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ...

يخوف الشيطانُ الإنسان بالفقر ... بعدم ضمان لقمة العيش ... ويأمره بكل القبائح ... من هذا السبيل ... فيتطاوع له أكثر الناس ... خوفاً من الجوع !!!

أو ينفخ الشيطان في الانسان نفخة كِبْر ... فيوهمه أن ليس كمثله أحد ..

فيعجب بنفسه ولا يرى أحداً خيراً منه !.

إنه الجسد ... مصيبة الإنسان العظمى ...

فتحتم أن يُضرب ... وأن تُضرم فيه النار ... نار البـــلاء ... ليتطهر

الإنسان من قاذوراته ... لعله يترقى !.

ورُبَّ قائل يقول : ولكن جسد أيوب ... ليس كذلك ... فهو نعم الجسد ... لنعم العبد ...

فلماذا يُضرب ... وليس فيه ما يستلزم التطهير ؟!

الجواب ... لأن الله أراد أن يتخذ أيوب ... مثالا ... للناس ... « **وذكرى للعابدين** » ...

كأنه يراد أن يقال ... أيها الناس ... مصيبتكم في أجسادكم ...

وهذا هو الجسد ... أمام أعينكم جميعاً ... فاشهدوا ...

وقد اخترنا جسداً طاهراً زكياً ... ليس أزكى منه في عصره ...

واشعلنا فيه نار البلاء ...

لتفهموا ... حقيقة الجسد ... وأنه لا يعدو أن يكون وعاء منتناً ...

ولولا حفظنا لكم ... ما استطعتم الحياة فيه لحظة واحدة ...

وسنُحدث في جسد أيوب ... اضطرابا ... لتفهموا أن التركيب المقدر بنسب معينة ... هو الذي يعطيكم نعمة الصحة والعافية ... ولو اختلت هذه النِسب ... لاشتعلت الآلام فيكم اشتعالاً ...

وسوف يمكث أيوب عدد سنين في هذه التجربة ... سبع سنين ...

وأنتم جميعاً تنظرون ... إلى بلائه ... لعلكم تفهمون !..

أيوب ... يتلظى ...؟!

يا أيها الملائكة أجمعين . . .

يا من قلتم حين خُلق آدم . . .

« **أتجعل فيها من يُفسد فيها ، ويسفك الدماء** » ؟!

تعالوا . . . واشهدوا . . .

هو ذا الإنسان . . . يحمل ما لم تحمله الجبال . . .

هو ذا أيوب . . . يحترق . . . ولا يلتفت عن ربه لحظة !!

هو ذا الإنسان . . . ممثلا في أيوب . . . يجتاز أشق بلاء . . .

كل خلية من جسده الشريف . . . تئن أنينا . . .

كل جزيأ . . . من جسده يشتعل . . .

وهو هو . . . يوج إلى ربه موجا . . .

« **إنّه أوّاب** » . . .

يا خلايا جسم أيوب . . . أوّبي معه . . .

وكان مقاماً رفيعاً . . . يعرج إليه أيوب . . . ويرتفع ثم يرتفع . . . كلما طوى درجة . . . رُفع إلى التي فوقها . . .

إنهم الأنبياء . . . يصعدون بالبلاء . . . إلى ما فوق السماء . . .

فماذا كان بلاء أيوب هذه المرة . . .

كان رهيباً عجيباً ...

قال ابن الأثير :

« ثم إن أيوب ... جدّ واستغفر ، فصعد حفظته من الملائكة بتوبته الى الله قبل ابليس

« فلما لم يرجع أيوب عن عبادة ربه والصبر على ما ابتلاه به ، سأل الله تعالى أن يسلطه على جسده

« فسلطه عليه ، خلا لسانه وقلبه وعقله ، فانه لم يجعل له على ذلك سلطانا

« فجاءه وهو ساجد ، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده

« وصار أمره الى أن انتثر لحمه ، وامتلأ جسده دودا

« فان كانت الدودة لتسقط من جسده فيردها إليه ويقول : كلي من رزق الله

« وأصابه الجُذام

« وكان اشد من ذلك عليه ، أنه كان يخرج في جسده مثل ثدي المرأة ثم يتفقأ

« وانتن حتى لم يطقْ أحد يشم ريحه

« فأخرجه أهل القرية منها إلى الكُناسة ، خارج القرية لا يقربه أحد ، إلا زوجته

« وكانت تختلف إليه بما يصلحه

« فبقي مطروحا على الكناسة سبع سنين ، ما يسأل الله أن يكشف ما به

« وما على وجه الأرض أكرم على الله منه » .

وماذا قال أهل الكتاب ؟!

قالوا : « فخرج الشيطان من حضرة الرب

« وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته

« فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها

« وهو جالس في وسط الرماد

« فقالت له امرأته أنت متمسك بعد بكمالك ؟!. بارك الله ومت

« فقال لها : تتكلمين كاحدى الجاهلات . الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل ؟

« في كل هذا لم يخطأ أيوب بشفتيه » !.

وماذا قال أهل الكتاب ... في تفسير ما عندهم ؟. قالوا :

« كان المرض الذي حل بأيوب عنيفاً جداً ... فالشيطان ضربه بقرح رديء في كل جسمه ، من باطن قدمه إلى هامته ، لعله كان مرض الحمرة في أعنف درجاته .

« إن قرحة واحدة أليمة جداً تقض مضجع المصاب بها ، فكم كانت حالة أيوب إذ انتشرت القروح في كل جسمه ، ولم يخل منها جزء واحد من جسمه ، وجعلت جسمه كأنه قد أضرم من جهنم » !؟.

« وكان كل ما فعله لقروحه أنه كان يحكها ، لم تعصب بأقمشة لينة ، ولم تلطف حدتها بمراهم شافية ، ولم تنظف بمحاليل مطهرة ... لكن كان كل ما عمله هو أنه يحك تلك القروح ، الأمر الذي كان يزيده ألما فوق آلامه . لو كان قد أراد أن يضمد قروحه واحداً بعد الآخر ، لطال به الحال جداً . ولذلك فكر في أن يحكها كلها مرة واحدة ، فكان العلاج أشد ألمـــاً من المرض نفسه .

ولم يكن لديه ما يستخدمه في هذه العملية سوى « شقفة » لا مبضع جراح أو آلة طبيب بما يناسب حاله ، بل شقفة يحتك بها فتزيد قروحه سوءاً .

« وبدلاً من أن ينام على سرير لين دافيء كان يحتك بالشقفة وهو يجلس في وسط الرماد .

« الأرجح أنه كان لا يزال لديه ســـرير ... لكنه فضل الجلوس في وسط الرماد ، أما لأنه ملّ من سريره ، أو لأنه أراد أن يضع نفسه مكان التائب الذي يجلس في التراب والرماد علامة على أنه قد كره نفسه ... هكذا تواضع تحت يد الله القوية ... يحصر تفكيره في حقارته وحالته الطبيعية .

« لقد شكا فيما بعد من أن « لحمه لبس الدود مع التراب »

« في الترجمة السبعينية وردت هذه العبـــارة هكذا « وجلس فوق مزبلة خارج المدينة » .

« فقالت له امرأته : أنت متمسك بعد بكمالك ؟ بارك الله ومت ...

« لقد هزأت بأيوب لسبب تمسكه بتدينه ... ألا تزال متعصباً جداً لديانتك بحيث لا يفصلك عنها أي شيء ؟ . أأنت غبي لهذا الحد بحيث تتزلف لإله لم يكافئك قط من أجل عبادتك إياه باعطاء أية علامة على رضاه ، بل يبدو أنه يسر بأن يشقيك ؟! . فقد جردك من كل شيء ، وضربك ضربات قاسية دون أي ذنب جنيته ؟ ... أهذا إله جدير بأن تستمر في أن تحبه وتباركه وتعبده ؟!.

« وحرّضته على أن ينبذ ديانته ، ويجدف على الله ، ويتحداه ، لكي يأتي بأسوأ ما عنده «جدف على الله ومت . لا تحيا فيما بعد معتمداً على الله» لا تنتظر أية إغاثة منه ، بل خلص نفسك بنفسك . اقض على متاعبك بأن تقضي على حياتك . خير لك ان تموت في الحال من أن تموت كل لحظة كما هو حالك الآن . لا تنتظر أية إغاثة من إلهك ، بل بالحرى جدف عليه » .

« في مناسبات أخرى حاج أيوب امرأته بكل لطف ، حتى عندما كانت قاسية معه : نكهتي مكروهة عند امرأتي ، وخمت[1] عند أبناء أحشائي » !.

ما هذا ؟! ... هذا ما نزل بجسد أيوب !.

لقد تحول أيوب إلى نار مشتعلة ... كل جسمه قروح ... القروح تتعاظم حتى يكون القرح مثل ثدي المرأة ...

ثم يتفقأ فيخرج منه صديد كريه الرائحة ...

الديدان تجوس خلال جسده ...

لا نوم ... لا في ليل ولا في نهار ...

ثم يُضرب بالجذام ... فيفر منه الناس فراراً ...

فيجلس أيوب ... وما يستطيع أن يجلس ...

على التراب ...

ثم على المزبلة ...

وحيداً ... تموج منه الآلام ... هكذا سبع سنين ...

حتى امرأته الباقية له من الكوارث ...

صارت عون للشيطان عليه ...

تريده أن ينتحر ليتخلص من آلامه ...

حيث لا سبيل أمامه للخلاص !.

فما معنى هذا كله ؟!.

معناه كبير ... جليل ... خطير ...

---

(١) خمت : صرت نتناً

وإليك الإشارة ... في عبارة ...

قلنـــا ... الانسان تركيب من جسد ... وروح ... وبنزول الروح في الجسد ... تنشأ النفس ...

وأن مصيبة الإنسان العظمى هي جسده ...

وهـــذا الجسد عبارة عن تراكيب متراكبة متلاحمة متعاونة ... بنِسب محددة تحديداً دقيقاً ...

وما دامت هذه النِسب ثابتة بالقـَدْر المطلوب ... كان الجسد صحيحاً ... وهو الجسم السليم ...

فإذا اختلـَّت هذه النِسب ... اختل الجسد ... وهو الجسم المريض ...

وفي حالة سلامة الجسم ... لا يشعر الإنسان بأي ألم ...

وفي حالة مرض الجسم ... يشعر الإنسان بالألم ...

ولما كان الأصل العام في تركيب الإنسان ... هو سلامة الجسم ...

أَلِفَ الناس أن يكونوا في صحة ... ولا يشعرون أنهم في نعمة جزيلة ... لأن إلـْف الناس الشيء يُنسي الاحساس بالنعمة ...

ولكي يفهم الانسان ضخامة الانعام عليه في حالة الصحة ... كان ناموس الأمراض ... تصيب الناس أحياناً ... بنِسب متفاوتة ... لتذكرهم نعمة الله عليهم في الصحة ...

وإشارة أخرى ... فيما حدث لأيوب ...

ان الإنسان محجوب عن ربه ... بجسده ...

بينما هذا الجسد ... حقير ... في حقيقته ...

ولكن الإنسان يرفض الاعتراف بحقارة جسده ...

بل ويعكس القضية ... فيتخذ من جسده معبوداً يعبده من دون الله !..

« أفرأيت مَن اتخذ إلهه هواهُ » ؟!.

والهوى هو شهوات النفس تهوى ما يهوى الجسد ...

فكان حتماً مقضياً ... أن تحدث تجربة ... تكشف للنـــاس حقيقة الجسد ... أمام أعينهم ...

وكانت هذه التجربة ... هي هذا الذي حدث في جسد أيوب ...

فماذا جرى ؟!.

كان أيوب ... نبياً ... قوياً ... في أتم صحة ... وأنضر حياة ...

كان رجلاً قوياً ... جميلاً ... رائع الصورة ... يسر الناظرين ...

فإذا أخذنا ... هذا الرجل القوي الجميل ... وأجرينا فيه التجربة ... فهم الناس أن الجسد ... مجموعة أخلاط ... لولا لُطف الله ورحمته ... فإنها تتحول فوراً إلى منتنات !..

وقد كان ... تخلخلت نسب التوازن في جسد أيوب ...

فتحول الجسم القوي الجميل ... إلى قروح من قمة رأسه ... إلى قدميه ...

ثم جعلت هذه القروح تنتفخ حتى يكون القرح كالثدي ...

ثم تتفقأ فيخرج منها نتناً ... ودوداً ... وصديداً وقيحاً !..

وتحول جسد أيوب ... إلى جهنم موقدة ...

نار موقدة ... يتلظى فيها جسم أيوب ...

ويتلوى أيوب حزناً وألماً !..

ها هنا ... وتحت ميكروسكوب الحقيقة ... يظهر الجسد في حقيقته ... قبر منتن ... وأخلاط من الأقذار ...

وكان يمكن أن تقضي هذه الأوجاع على أيوب فيموت ...

ولكن ليس هذا هو المطلوب من التجربة ...

المطلوب أن يبقى حياً ... لا يموت فيها ولا يحيى ...

ليشهد جميع البشر حقيقتهم ... حقيقة أجسامهم ... التي عبدوها من دون الله ...

ها هو الرجل القوي الجميل ... يتحول إلى شبه جيفة ...

ها هي حقيقة الجسد المكنونة في الباطن ...

تظهر في عالم الظاهر ... أمام العيون ... ليدرك الجميـــع ما هو الجسد ... وما حقيقته ... وأنه أحقر من أن يكون معبوداً للانسان !.

وهذه القروح التي تغطي جسده كله ... بصديدها وقيحها ونتنها ... ما خرجت إلا من داخل جسده ... وما جاءت إليه من خارج جسده ... إذاً حقيقة هذا الجسد ... من نفس النوع ... أخلاط منتنة !.

« **إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا** » .

أمشاج : أخلاط !.

فإذا نظرنا إلى تجربة أيوب ... علمنا أن ما ظهر على سطح جسمه ... هو المكنون في باطن أجسامنا كلنا ...

وإنما دقة الصنعة الإلهية .. ودقة النِسَب الموضوعة في التركيب الآدمي .. هي التي سترت هذه القبائح ... وغطت تلك المنتنات عن العيون ...

فتوهمت العقول ... أن جمـال الأجسام جمال ذاتي ... وافتتنت به ... ثم عبدته وخضعت له ... فكان حتما ... أن يُكشط هذا الغطاء ... لتظهر الحقيقة الصارخة ... ويتطاير الوهم بعيداً ...

وكان يمكن أن يُشفي أيوب من كل هذا سريعاً ...

ولكن المطلوب ... أن تبقى التجربة أطول مدة ممكنة ... سبع سنين

... وهو هكذا أمام البشرية كلها ... لتشهد كلها ... أن هذا هو الجسد ... هذا هو الإله الذي تعبدون ...

أتعبدون وهنا منتنا ؟.

أن يبقى هكذا ... ميتا ... حيا ... ليكون آية من الله ...

فيه ... كل نواميس الموتى ... من التجيف ... والروائح الكريهة ... والتدود ... وملازمة التراب ... والتفرد وحده ... وفرار الأقارب والأباعد عنه ... تماما كما هو شأن الموتى ...

وفي نفس الوقت ... يبقى حياً ... فيه كل نواميس الحياة .. من الإحساس ... والتألم ... والحزن ... والرجاء في الله ... والأمر في التحسن !.

انها تجربة عجيبة ... وآية فريدة ... ممتدة على مدى سبع سنين ...

كل لحظة منها ... فيها من الآلام والأحزان ... ما يملأ الزمان !.

وإشارة رهيبة أخرى ... من التجربة الرهيبة ...

إن البشرية ستبقى فيها قطاعات من البشـــر ... إلى يوم القيامة ... سوف تبتلي بالأمراض الرهيبة ... كالجُذام ... والسرطان ... والسُّل ... والشلل وغيرها من الخبائث ...

وهؤلاء جميعاً ... يتحتم أن يكون لهم نصيب من الأنبياء ... يجدون فيه العزاء ...

ولا شيء يخفف عن المصاب ... مثل رؤيته لمن هو مصاب بمثل بلائه ...

فاختار الله ... نبيه أيوب ... وابتلاه بأقصى ... ما يمكن أن يُبتلى به جسم إنسان ...

ليكون عزاء لأهل البلاء ... وأصحاب المصائب في أجسامهم ...

كلما نظروا إلى مصيبته هانت عليهم بلواهم ...

وقالوا في أنفسهم ... مهما يكن بنا من أوجاع ... فقد أصاب أيوب ما هو أدهى وأمَرّ !!

يا له من مشهد رهيب !!

فرد ... وحده ...

تقطعت به الأسباب ...

لا والد ولا ولد ...

ولا مال ولا خدم ...

يتلوى من الألم ... فينقلب من ألم إلى ألم ...

ويشتعل جسده ناراً تلظّى ...

يجلس على التراب ... « لحمه لبس الدود مع التراب » ...

حرام عليه أن ينام ... من ليل أو نهار ...

قروحه تمتد وتتمدد في سائر جسده ...

ثم تتوهج وتتدفق ... صديداً منتناً ... ورائحة كريهة لا تُطاق ..

ثم يصاب بالجُذام ... فيفر منه القريب والبعيد ... مخافة العدوى ...

ثم يضيقون به ... فيخرجوه إلى مزبلة ... خارج المدينة ...

وتتوالى عليه الليالي ... وكل أيامه ليالي ...

وحده ؟!.

وسقطت الأسباب ... وتقطعت ... فلا أنساب ...

فتمت غربته ... واستوحش منه الخلق أجمعين ...

وبلغ الحسد أقصى مقارنة ... وتكشفت حقيقته ...

ولكن قلبه ... لم يتحول عن ربه لحظة ...

وإنما يُؤوِّب ويُؤوِّب ...

وتفيض عينه من الدمع وتفيض ...

ويهوج إلى ربه موجاً ...

إنه « أيُّوب » أي كثير التأويب ... دائم التأويب ...

« إنه أوَّاب » ؟!.

وافهم الإشارة من اسمه أيُّوب ؟!. إنه أوَّاب ؟!.

والأسماء لها دلالات عند أهل المعرفة !..

الله ... ينظر إلى قلب ... أيوب ...؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله لا ينظُرُ إلى اجسادكم ولا إلى صُوركم ،

« ولكن ينظُرُ إلى قلوبكم .

« واشار باصابعه إلى صدره » .

[أخرجه مسلم]

أما الصورة ... فقد دُمرت تماماً ...

وأما الجسد ... فقد سُحق سحقاً ...

فماذا بقي من أيوب ؟ !.

بقي ... أغلى ما فيه ...

بقي ... قلبه !..

أما الصورة ... فهي حجاب ... فلتُكشط كشطا ...

وأما الجسد ... فهو الحجاب الأعظم ... فليُدمر تدميراً ...

ليبقى القلب ... وحده ...

ويفنى القالب ...

لماذا ؟!. لأن الله ... ينظر إلى القلب ... ولا ينظر إلى الصورة ... أو الجسد ...

هل فهمت ؟!. ما أظنك تفهم !..

أقول ... في لغة أقرب إلى العقول ...

كان أيوب ... أحب أهل الأرض آنذاك ... إلى الله ...

فهو النبي ... والنبي في وقته ... أحب أهل الأرض إلى الله ... في وقته ...

فأيوب ... هو المحبوب ...

فلما أحبه ... أفنى منه العلائق ... وأبقى الحقائق ...

أفنى ... المال ... والأولاد ... والنَّفس ... والجسد ... والصورة ...

وأبقى ... الحقيقة ... أبقى القلب ...

فلما سقطت الحجب جميعاً ...

أصبح القلب مؤهلاً للحبيب ...

« فلما تجلّى ربه للجبل جعله دَكّاً .

« وخَرَّ موسى صَعِقاً » ...

وها هنا ... لما تجلّى ربه للجبل ... لجسد أيوب ... جعله دَكّاً ... فتلاشى الجسد ... وخَرَّ أيوب ... خرَّ جسده صَعِقاً !..

هل فهمتَ سر بلاء أيوب ؟!. ما أظنك تريد أن تفهم !..

فلما أحب اللهُ ... أيوب ... اشتد حب أيوب لله ...

هنالك طُوي الزمان ... فلا زمان ...

« انك بالواد المقدس طوًى » !..

فمضى على أيوب في بلائه سبع سنين ... وهُنَّ عنده لحظة !..

هل فهمتَ الآن ... لمــــاذا رفض أيوب أن يسأل الله كشف بلائه ... وقال « كنا في النعماء سبعين سنة ، فلنصبر في البلاء سبعين سنة » ؟!.

هل فهمتَ ؟!. انه يريد أن يبقى سبعين سنة هكذا ...

ولولا انه يخاطب امرأته ... والمقام ليس مقامهــــا ... لأعلن حقيقة ما يريد ... وهو أنه يريد أن يبقى هكذا أبداً !..

انه في سعادة ... لا يريد أن يفقدها !..

وأي سعادة ؟!. هل هي مستوى سعادة أهل الجنة « ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ؟!.

كلا ... بل هي أعلى !..

وأي شيء هو أعلى من ذاك ؟!

ما كان فيه أيوب ... وقتذاك ... هو أعلى من ذاك ؟!.

كان أيوب ... مطلوباً ...

ودليل ذلك أن الله صب عليه البلاء صباً ... ولم يطلب أيوب أن يُبتلى ...

وكان أيوب ... محبوباً ...

وآية ذلك ... إطالة بلائه ... ولم يطلب أيوب إطالة بلائه ...

فلما طُلب ... طَلـَب ...

ولما أحَبَّه ... أحَبَّ ...

فلما ذاق ... عَزَّ عليه الفراق ...

ماذا ذاق ؟!.

لا سبيل لنا إلى ذاك المذاق !..

إنه نعيم النعيم ...

وأي نعيم هو أنعم ... من نعيم أيوب آنذاك ؟!.

سل أيوب ... ولا تسلني ؟!.

فما المسئول بأعلم من السائل !..

وإنما هنا شماعة تتشمشم من قوله « نِعم العبدُ انّه أوّاب » ...

نِعْمَ ؟!. فيها إشارة إلى ما كان فيه أيوب ... طيلة السنين السبع من نعيم !..

أوّاب ... إشارة إلى أنه قضاها ... أولئك السبع سنين ... أوّاباً ...

كلما أنّ جسده أنّة ... أوّب قلبه تأويبة ...

فالجسد في أنين ... والقلب في رنين ...

الجسد يفنى ... والقلب يبقى ...

الجسد يتلاشى ... والقلب يتعالى ...

وإذا كان الله ... مع أيوب ... فكل الوجود ... مع أيوب ...

وإذا استوى الله ... على قلب أيوب ...

استوى أيوب ... على جسد أيوب ...

أحلى أيام عمره ...

وأسعد لحظات حياته ...

ولعلك الآن تفهم ماذا كان يعني أيوب ... حين حلف لئن شفاه الله ...
ليضربن امرأته مائة جلدة ... حين طلبت منه أن يدعو الله أن يشفيه ...

انه كان يخشى آلام الفراق ... عن المحبوب ...

ان يفقد نعيم التلاق ...

إذا كشف الله عنه بلاءه ...

فنظر إلى زوجته ... على أنها تدعوه ... إلى الخروج من الجنّة ...

فأقسم لئن شفاه الله ... ليضربنها مائة !..

أولئك الأنبياء ...

مقاماتهم ... لا تُدرك ...

ومذاقاتهم ... لا تذاق ...

وأنى للأدنى ... أن يُدرك مقامات الأعلى ؟..

تلك الرسل ... فضلنا بعضهم ...
على بعض ؟!...

فيما نعلم ...

لا شيء من المخلوقات ... هو أبدع من الإنسان !..

وأبدع الابداع ... من الإنسان التنوع والاختلاف في أمره كله ...

فلا يوجد قط إنسان ... هو نسخة طبق الأصل ... من إنسان آخر !..

وهذا دليل الأدلة ... على قدرة مَن أبدعه ... التي لا تتناهى !..

تجد ذلك الناموس مكنوناً في قوله سبحانه :

« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة .

« ولا يزالون مختلفين .

« إلا مَن رحم ربك .

« ولذلك خلقهم » ...

والسر في قوله « ولذلك خلقهم » ؟!.

خُلقوا مختلفين في كل شيء ...

في الصُور ... فلا توجد صورة إنسان ... تتطابق تماماً مع صورة إنسان...
لا بد من اختلاف ما ...

في الطول والقصر ... يختلفون ...

في الجمال والقبح ... يختلفون ...

في الإيمان والكفر ... يختلفون ...

في الميول والأفكار ... يختلفون ...

في الغنى والفقر ... يختلفون ...

في الذكاء والغباء ... يختلفون ...

في العلم والجهل ... يختلفون ...

في الأعمار والتعمير ... يختلفون ...

في الكرم والبخل ... يختلفون ...

في الكلام واللغات ... يختلفون ...

في الأصوات والنظرات ... يختلفون ...

في الرضى والغضب ... يختلفون ...

في الحزن والسرور ... يختلفون ...

في التفاؤل والتشاؤم ... يختلفون ...

في الحب والبغض ... يختلفون ...

في العقل والجنون ... يختلفون ...

في الإرادة واللاإرادة ... يختلفون ...

في المكر والسذاجة ... يختلفون ...

في الخبث والطيبة ... يختلفون ...

في الشقاوة والسعادة ... يختلفون ...

في العبقرية والغباء ... يختلفون ...

وإن من شيء ... من أمر هـــذا الإنسان ... إلا ويختلف فيه عن سائر الناس !..

امتداداً من آدم ... إلى يوم القيامة ... طولاً ...

وامتداداً من أعلى عليين ... إلى أسفل سافلين عرضاً !..

وهذا مكنون في قوله « ولا يزالون مختلفين » ... أبداً ... وباستمرار... وبلا توقف ... جيلاً بعد جيل ... يختلف كل إنسان ... عن كل إنسان ... في كل شيء !..

وهذا الناموس... من أبدع النواميس ... التي أجراها... الله سبحانه ... في خلق الإنسان !..

هـــذا التنوع الذي لا يتناهى ... في كل فرد فرد ... من الإنسان ... أعطى الحياة البشرية جمالاً ليس بعده من جمال ...

« ان سعيكم لشَتّى » !..

لماذا هذا ؟!

« ولكلٍّ وجهة هو مُولّيها » !..

ولكلٍّ ؟!.

كل فرد ... له وجهة ... غير الآخر !..

ومتى اختلفت الوجهة ... اختلف السعي ... اختلفت الأعمال !..

وتراكبت البشرية كلها ... ككل ... من أفراد مختلفين في كل شيء ...

وأبدعت القدرة ... تلاحم هؤلاء المختلفين ... فأخرجت منهم حيـــاة يكمل بعضها بعضا !..

وهذا إبداع آخر ... فوق إبداعهم مختلفين !..

وهذا هو معنى ... الدرجات ... بلسان الشريعة ...

أو النسبية ... بلسان الحقيقة ...

كل إنسان أتاه الله ... درجات ... من كل شيء ... تختلف عن غيره ...
أو أتاه نسبة ... من كل شيء ... تختلف عن غيره ...

فيضطر كل إنسان ... أن يسعى لاستكمال ما ينقصه ... مما يجده عند الآخرين ...

فيتدافع الناس إلى بعضهم بعضا ... فتتحرك الحياة كلها ...

« ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ...

لفسدت الحياة البشرية !..

ثم ماذا ؟.. ثم هذا كله... مقدمة لما نريد أن نصل اليه ... إن شاء الله...
من أمر الأنبياء ... عليهم صلوات الله ...

فكل نبي ... يختلف عن كل نبي ...

كل نبي ... له موجته ... له درجته ... التي تختلف عن سائر الأنبياء ...

فليس الأنبياء ... صورة طبق الأصل ... من بعضهم بعضاً ... تتكرر على مدى السنين ...

كلا ... وإنما لكل نبي ... موجته الخاصة به ... المتميزة ... المختلفة ... عن كل نبي !..

وهذا يزيدهم جمالاً ... فوق جمالهم ...

لأن التنوع ... يُظهر القدرة ... أكثر وأكبر ... من عدم التنوع ...

فهذا ... خليل الله ...

وهذا ... كليم الله ...

وهذا ... روح الله ...

وهذا ... حبيب الله ...

وفيما أوحى إليهم ... هذه صحف إبراهيم ... وهذه التوراة ... وهذا الزبور ... وهذا الإنجيل ... وهذا القرآن !..

كل منهم بلبل ... من بلابل الحضرة ... وكل بلبل ... له صوته ...

« لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » .

لأن صوته ... أجمل وأعلى صوت ...

فتحتم أن تخشع الأصوات جميعاً ... إذا ارتفع صوته ...

وأن يكون حديثنا في حضرة النبي ... صلى الله عليه وسلم ... همساً !..

« فخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمعُ إلا همساً » !..

ومن هنا ... كان الأمر الإلهي ... أن نؤمن بالرسل جميعاً ... لأن كلا منهم ... مجلى من المجالي الإلهية ...

وأن نؤمن بما انزل عليهم جميعاً . لتتكامل المجالي كلها ... في قلوبنا ...

« آمن الرسول بما انزل اليه من ربه

« والمؤمنون

« كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

« لا نُفرّق بين أحدٍ من رسله » ..

لا نفرق ؟!.

لأن التفريق ... معناه أنك تبطل صوتاً من الأصوات ... وهذا نقص في كمال التجلي !..

ورنّمت البلابل كلها ... في الحضرة الإلهية ...

كل يُرَنّم ... بصوت يختلف عن غيره ...

ولكن النشيد ... يُعطي حقيقة واحدة ...

حقيقة ... لا إله إلا الله ...

« أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله » !..

ولكن ُكلاً ... قالها ... رنّمها بصوته ...

ورنّمت كل أمة ... بترنيم رسولها ...

ولكن المجموع ينشد نشيداً واحداً ... لرب واحد ...

نشيد ... لا إله إلا الله ! .

تخطيط عجيب ... شامل ... كامل ... ينظر إلى البشرية ككل ...

كمجموعة واحدة ... تتعاقب أجيالاً ... بعد أجيال ...

ولكن الناموس ... الذي يسري ويجري فيها ... واحداً لا يتغير ...

« فلن تجد لسُنّة الله تبديلا .

« ولن تجد لسُنة الله تحويلا » !..

ثم ماذا ؟.. ثم كل هـــذا تمهيد ... لندخل إلى ... ترنيمة نبي الله ... أيوب ... عليه السلام ... التي رنّمها ... ضمن النشيد العام ... في حضرة الله سبحانه !..

قلنا ان كل نبي له صوته ...

وله موجته ... أي له درجته ... التي لا يشغلها سواه ...

وأن هذه الدرجة ... لها خصائص ... تتفرد بها عن غيرها من درجات الأنبياء ... وإن كانت كلها ... تنشد لله !..

كلها ... ُتحيي الله !..

« التحيات لله » .

وصوت أيوب .. صوت الحُزن ... فجسده مضروب ...

وصوت الغربة ... فالناس فرت عنه فراراً ...

وصوت الوحدة ... فهو متوحد ... في عالم يعج بالبشر ...

وصوت الروح ... وقد تخلصت من جسدها ... فلم يعد يصلح لها ...

ورنّم أيوب لربه :

« إذا اضطجعت أقول : متى أقوم ؟

« الليل يطول واشبع قلقا حتى الصبح .

« لبس لحمي الدود مع مدر التراب » !.

إنه يتأوه ... لله !!!

ثم ينادي ربه ... وينادي :

« عيناك عليّ ، ولست أنا » .

« أتكلم بضيق روحي .

« أشكو بمرارة نفسي » !.

ثم يزفر ... إلى ربه :

« الموت على عظامي هذه .

« قد ذُبت » !..

قد ذُبت ؟!

لم يبق من جسده شيء !.

ثم ينادي ربه ... في كربه ...

« يداك كوّنتاني وصنعتاني كلي جميعا .

« منحتني حياة ورحمة ، وحفظت عنايتك روحي » !.

روحي ؟!

أهلكت الجسد ... ولكن حفظت روحي ...

لتنطلق محررة إليك !.

وينادي ربه ... وينادي :

« كم لي من الآثام والخطايا ؟

« أعلمني ذنبي وخطيتي » !

ثم يناجيه ... ويناجيه :

« الانسان مولود المرأة ، قليل الأيام ، وشبعان تعبا .

« يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف » .

يبرح كالظل ولا يقف ؟!

جمالها شعشعاني ... الحيـــاة كالظل ... لا يلبث أن يغادر مكانه ... ولا يقف ... ولا يثبت وإنما يذهب !.

ويهتف بربه محزوناً :

« أوقفني مثلا للشعوب ، وصرت للبصق في الوجه .

« كلت عيني من الحزن ، وأعضائي كلها كالظل .

يتعجب المستقيمون من هذا » !.

وصرت للبصق في الوجه ؟!

لكي يهزأ بي كل من أرادوا ...

صار اسمه مثلا ... ولا يزال الناس إلى الآن يتخذونه مثلاً ، ويقولون : هذا مسكين مثل أيوب .

كلت عيني من الحزن ؟!

لقد بكى وبكى ... حتى كاد يفقد نظره ...

وأعضائي كلها كالظل ؟!. صرت نحيفاً جداً ... لا أدعي إنساناً ... بل ظل إنسان ؟!.

يتعجب المستقيمون من هذا ؟!

لماذا صُنع هذا بأيوب ... وهو النبي الصالح ... وما الحكمة من هذا ؟!

إنها فتنة غير مفهومة للعقول ؟!

وها هو أيوب ... يرد على اللائمين :

« قد أبعد عني إخوتي ، ومعارفي زاغوا عني .

« أقاربي قد خذلوني ، والذين عرفوني نسوني .

« نزلاء بيتي وإمائي يحسبونني أجنبيا ، صرت في أعينهم غريبا .

« عبدي دعوت فلم يجب ، بفمي تضرعت إليه .

« نكهتي مكروهة عند امرأتي ، وخممت عند ابناء أحشائي .

« الاولاد أيضاً قد رذلوني ، اذا قمت يتكلمون عليّ .

« كرهني كل رجالي ، والذين أحببتهم انقلبوا عليّ .

« عظمي قد لصق بجلدي ولحمي ، ونجوت بجلد أسناني .

« تراءفوا تراءفوا أنتم عليّ يا أصحابي ، لأن يد الله قد مسّتني » !..

هذا أصدق تصوير لحالة أيوب ... بلسان أيوب نفسه !..

وليس أصدق من الأنبياء ... حين يتكلمون !..

ان أيوب ... يرنم ترنيمة الغربة ... والتوحد ... في موجة الحزن ...

وهذا مقامه ... وتلك درجته ... وهذه خصائصها المتميزة ...

ثم ماذا ؟.. ثم هذا كله مقدمة ... للإجابة على سؤال خطير ...

هل يجوز ان يُبتلى الأنبياء بالأمراض المنفرة ؟!.

لقد ذهب فريق من العلماء ... إلى إنكار ما رُوي في قصة أيوب ... من ابتلائه بتلك الأمراض ... وقالوا انها من تهاويل القصص ... وأن الأنبياء منزهون عن الابتلاء بمثل هذه الأمراض ... لأنها تنفر الناس عنهم ... وهذا ينافي الحكمة من إرسالهم إلى الناس !..

والحق من تلك القضية ...

أن الذي يعيب الإنسان أن يتدلى إلى المعاصي ...

ولكن لا يعيب الإنسان أن يصاب بمصيبة ... صُبت عليه صباً ... ولا مدخل له فيها ...

والأنبياء معصومون ... لا يعصون الله ما أمرهم ...

أما تنزيههم عن أن يصابوا بالمصائب ... مهما كان نوعها ... فهذا مذهب لا حاجة اليه ...

فإذا اصطفى الله ... نبياً من أنبيائه ... وابتلاه بالأمراض الشديدة ... المنفرة للناس ...

فالحكمة واضحة ... وهي أن يكون مثالاً للنـــاس ... إذا ابتلوا بمثل بلائه ...

وأن يصبروا كما صبر ...

فلا غرابة أن يُبتلى أيوب ... بتلك الأمراض ... ولا ضرورة تدفع هؤلاء إلى إنكار ذلك ...

بل ان وقوع تلك الأمراض بأيوب ... هو استكمال للأخلاق ... وإتمام لمكارم الأخلاق ...

فلو لم يكن من نبي الله أيوب ... ذلك الأنين لله ... والتوجع لله ...

لما وَجَد أهل البلايا ... الصوت الذي يعزيهم في بلاياهم ...

فإذا ما سمعوا أيوب ... يتأوه « لبس لحمي الدود » مع مدر التراب »...

تنفسوا ... وهدأوا ... وتقطرت دموعهم في الليالي ... مع دموعه ...

وكما قلنا ... انه صوت لازم ... بين أصوات الأنبياء ...

صوت الحزن والألم والبكاء ...

وبذلك يكمل النشيد ... وتتم مكارم الأخلاق !..

ولعل تلك الحكمة ... هي التي جعلت أيوب ... يتمنى وهو يتأوه ... تلك الأمنية ...

فماذا تمنّى ؟!.

وذكرى ... للعابدين ؟!...

قال عز من قائل :

« وأيوب إذ نادى ربه أني مسنيَ الضُر وانت أرحم الراحمين .

« فاستجبنا له .

« فكشفنا ما به من ضُر

« وآتيناه أهله ومثلهم معهم

« رحمة من عندنا

« وذكرى للعابدين » .

والذي نركز عليه ها هنا قوله : « وذكرى للعابدين » !.

أي فعلنا ما فعلنا ... بأيوب ... والحكمة منه ... أن يكون ذكرى للعابدين ...

تذكرة ... لجميع المتوجهين إلينا ...

مثالا ... حيّاً ... يجد فيه كل مَن توجّه إلينا ... الأسوة الحسنة والنموذج الحيّ ... أمام عينيه ...

فإذا أصاب مؤمن ضُر في جسده ... تذكر أيوب ... وما حدث لأيوب ... فقال في نفسه : لست وحدي ... إنما هي سُنّة ماضية في الناس جميعاً ... كُلٌ يصيبه نصيبه من القَدَر ... تطهيراً لآثامه ... وتخفيفاً من اجرامه ... ثم رفعاً لدرجاته عند ربه ...

ليس الأمر أمر اضطهاد من المقادير للبشر ... وإنما رحمة من الله ... بالبشر ...

ولذلك قال : « رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين » !

هدفان اثنان ... عظيمان كريمان ... لكل بلاء ...

رحمة من عندنا ...

وذكرى للعابدين ...

الهدف الأول ... رحمة نازلة منا رأساً ... إلى المبتلي ...

الهدف الثاني ... ذكرى للعابدين ... ذكرى منا رأساً ... ليتذكر كل مؤمن ... حقيقة الحيـــاة ... وتفاهتها ... وأنه ينبغي أن لا تشغله عن حقيقته ... أنه مؤهل لحياة أسمى وأرقى وأبقى ... الحياة التي هناك ... في الآخرة ...

ويتطابق هذا تماما ... وتمام التطابق ... مع ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ...

وكان حتما ... أن يتطابق ... فالكتاب من عند الله ... والرسول رسول الله !.

« ما من مسلم يُشاكُ شوكة فما فوقها

« إلا كُتبت له بها درجة

« ومُحيت عنه بها خطيئة » .

انظر ... هدفان اثنان ...

درجة ... ومحو خطيئة ؟!

إن كان هناك ذنب ... سقط ... ومن الحتم أن تكون هناك ذنوب ... فمن منا لا ذنوب عليه ؟!

الهدف الثاني ... رفع درجة ... إلى أعلى ...

محو الذنب ... ثم رفع الدرجة !.

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها

« إلا رفعه الله بها درجة

« أو حط عنه بها خطيئة » .

الجديد هنا ... إما رفع درجة ... وإما محو خطيئة ...

إن كانت هناك خطيئة محيت ... وإن لم يكن ... فرفع درجة !.

« عن عائشة قالت :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما من شيء يصيب المؤمن ، حتى الشوكة تصيبه

« إلا كتب الله له بها حسنة

« أو حطت عنه بها خطيئة » .

أي أن البلاء قلّ أو كثر ... يدفع سهم المؤمن إلى أعلى ...

فإن صادف ظلمة أي خطيئة محاها ...

وإن لم يجد خطيئة اندفع إلى أعلى ... إلى الارتفاع في درجات النور ...

« أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما يُصيبُ المؤمن ، من وصَب ولا نصَب ، ولا سَقَم ولا حَزَن .

« حتى الهمّ يُهمّه .

« إلا كُفِّر به من سيئاته » .

وهذا الحديث أكثر تفصيلا ... وأجمع لأنواع الأحزان والهموم ...

حتى الهمّ يُهمُّه ؟!.. مجرد الهموم ... كفارات لأهلها ...

وما من أحد يخلو من الهموم ...

فهناك غسالات تغسل خطايانا ... أولاً بأول ... هي تلك الهموم ... تلك المشاعر المستمرة بمشاكل الحياة التي تواجهنا باستمرار ...

ومن هنا نفهم ... انه ما من شيء يصيب الإنسان إلا وهو رحمة من عند الله تصيبه !..

وتأمل تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم ... الجامع المانع « **ما من شيء يُصيب المؤمن** » ...

ما من شيء ؟!.

شمول ... يشمل كل شيء ... يصيب المؤمن ...

إذاً ... هو فتح لأبواب الرحمات على مصراعيها ... ليدخـــل فيه المؤمن ... طوعاً ان شكروا وصبروا ... وكرْهاً لإرغامهم أن يتذكروا وإن كرهوا ... وهذا منتهى الرحمة !..

فأنت حين تُضرب ببلاء ما ...

إما أن تفهم الحكمة ... فترقى ... طوعاً ...

وإما أن يصيبك الغباء ... فلا تفهم ... فما يزال يضربك ... كما يُضرب البهيم ... لعلك تفهم ... رغم أنفك ... أي كرْهاً ...

أما الأزكياء ... فبالإشارة يفهمون ... فإذا أصابهم شيء ... أدركوها فوراً ... وارتفعوا إلى الدرجات سراعاً !..

« **عن أبي هريرة قال :**

« لما نزلت من يعمل سوءاً يُجزَ به » بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً .

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قاربوا وسَدِّدوا .

« ففي كل ما يُصاب به المسلم كفّارة .

« حتى النكبة يُنكبها أو الشوكة يُشاكها » .

ناموس ... يوازي ناموساً ؟! .

مَن يعمل سوءاً يُجزَ به ... هذا ناموس ...

كل من عمل سوءاً ... يُجزَ به ...

ومن ذا الذي لا يعمل سُوءاً ؟! .

ومن هنا بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ! ..

فما المخرج ؟! .

ها هو المخرج ... ناموس مقابل الناموس السابق ...

« ففي كل ما يُصاب به المسلم كفّارة » ! ..

اوتوماتيك جزاء ... مَن يَعمل سوءاً يُجزَ به ...

وفي مقابـــله ... اوتوماتيك مغفرة ... **« في كل ما يُصاب به المسلم كفّارة » ! ..**

وما من مسلم إلا ويُصاب في كل يوم ... بأشياء تُحدث له هموماً ... أو حزناً ... أو ألماً ... إذاً هناك كفارات مستمرة لا تتوقف ...

جمال عجيب ... وتوازن رهيب ... وإحكام لا يكون قط ... إلا من الله ... أرحم الراحمين ...

لمّا قضى ... مَن يَعمل سوءاً يُجزَ به ...

فتح لعباده في مقابل ما قضي ... بلسان رسوله صلى الله عليه وسلم ...
« في كل ما يُصاب به المسلم كفارة !..

تتولى محو الذنوب عنك ... شئت أم لم تشأ ... سألت أم لم تسأل !..

وهذا منتهى الرحمة ... من أرحم الراحمين ...

ان يغفر لهم ... ويمحو سيئاتهم ... وهم لا يشعرون !..

فهل تجد من أحد ... غيره ... يفعل بك من ذلك من شيء ؟!.

كلا ... لأنه هو وحده ... أرحم الراحمين ... وهو وحـــده ... خير الراحمين !..

سبحان الله ... ما أرحم الله !..

سبيلان يرحمنا الله بهما ...

سبيل الأوامر الشرعية ...

فالصلوات الخمس ... كفارات لما بينهم ...

والصيام ... من صامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ...

والحج ... من حـــج فلم يرفث ولم يفسق ... رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه !..

كفارات ... في كل ما شرع الله لنا من عبادات ...

والسبيل الثاني ... كفّارات ... في كل ما يُصيب المؤمن ...

تلك العبادات ... غسالات ... اوتوماتيكية ...

وتلك البـــلايا والمصائب ... غسالات اوتوماتيكية ... تعمل من ورائها ...

فمن لم تطهره العبادات ... طهرته المصائب ...

ومن طهرته العبادات ... ارتقى بالمصائب ...

فانظر إلى جميل رحمته سبحانه ...

وسبحه تسبيحاً كثيراً !.

ثم ماذا !؟ ثم نقول ... إن نبي الله ... أيوب عليه السلام ...

كان يعلم ... من الله ... حكمته سبحانه ... فيما ابتلاه ...

أن يكون « ذكرى للعابدين » ...

فتمنى أن تبقى تجربته خالدة في الحياة البشرية... ليتعلم منها العابدون... المتوجهون إلى ربهم ... ماذا في البلاء من عطاء ... وماذا فيه من الرحمة ...

وعند أهل الكتاب ... فيما رووا عن أيوب :

« ليت كلماتي الآن تكتب .

« يا ليتها رسمت في سفر .

« ونقرت إلى الأبد في الصخر بقلم حديد ورصاص .

« أما أنا فقد علمت ان وليي حي ...

« وبعد أن يفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله .

« الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر .

« إلى ذلك تتوق كليتاي في جوفي » ...

ليت كلماتي الآن تكتب ؟!.

يا ليتها رسمت في سفر ؟!.

هذا ما تمنى أيوب ...

تمنى أن تسجل تجربته في كتاب خالد ... يقرؤه كل جيل ... وكل إنسان ...

ليفيد من التجربة ... ويدرك أبعاد حكمة البلاء...

وقد كان ... وسجل الله تعالى ... تجربته في كتابه العظيم ...

وأصبح قرآناً يُتلى إلى يوم يبعثون ...

« وأيوب إذ نادى ربَّه اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ،

« فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضُر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » !..

وأيوبَ ؟!.

واذكروا جميعاً ... وتذكروا جميعاً ... تجربة أيوب ... قصة أيوب ... وما جرى فيها ... لتعلموا منها ... الكثير ... وتدركوا منها ... عجائب حكمتنا في كل بلاء ...

وما من شيء يصيبكم... أيها العابدون... إلا وفيه... « **رحمة من عندنا... وذكرى للعابدين** » !..

إني ... مسني ... الضر ؟!...

متى . . .

جأر أيوب . . . هذا الجؤار ؟!.

متى نادى أيوب ربه ؟!.

أبمجرد بلائه . . . أم بعد سنين ؟!.

ثم كيف يطلب أيوب . . . كشف الضر عنه . . . وهو يعلم أن هذا سبيل القرب من الله ؟!

هل استثقل أيوب وقع الضُر به . . . أم ما الذي دفعه إلى الجؤار ؟!.

وهل مقتضى الصبر . . . أن تسكن تحت البلاء ولا تفتح فمك . . . أم مقتضى الصبر أن تجأر إلى الله ؟!

وهل الشكوى إلى الله تنافي الصبر ؟!

قضايا . . . وبلايا . . . ينبغي أن تُجلّى . . . ليفهم النـــاس الحقيقة بلا غطاء !..

أما متى جأر أيوب إلى الله أن يكشف عنه البلاء . . . فإن ذلك كان بعد سبع سنين . . . على قول . . . أو بعد ثمان عشرة سنة على قول . . .

فإن أخذنا أنه كان بعد سبع سنين . . . وهو الحد الأدنى . . .

فإن سنة في البلاء . . . كألف سنة مما تعدون . . .

فكأنه جأر بعد سبعة آلاف سنة من البلاء . . .

فإن لحظة من الألم ... تمر كئيبة بطيئة ثقيلة ... كأنها الدهر الذي لا يتناهى ...

ومن هنا نفهم : لماذا « انما يُوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » ؟!

لأن الأيام التي قضوها في آلام البلاء ... هي آلاف من السنين العجاف السوداء التي لا تتحرك ...

فكان جزاءً وفاقاً ... أن يعطوا أجراً بغير حساب ... أجراً لا يتناهى !..

ثم ماذا كان حال أيوب في تلك السنين السبع ... أو الآلاف السبع ... بلغة الآلام والأحزان ؟!.

رجل ... جُثة ...

وجثة ... متعفنة ...

وتعفن ... تحول إلى دود ...

وروائح كريهة ... لا تطاق ...

حتى هنا ... صَبَر أيوب ...

ولكن الدود ... بدأ يزحف إلى لسانه ... الذي يذكر الله به ...

وبدأ يزحف إلى قلبه ... الذي يتوجه إلى ربه به ...

هنالك ... جأر أيوب ...

هنالك ... نادى أيوب ربه ...

هنالك ... فزع اليه ... وحُقّ له أن يفزع ...

إذا تآكل اللسان ... وتآكل القلب ... فبأي أداة يرنم لربه ويتوجه ؟

وكان جؤاره ... جؤار المعدوم تماماً ...

يستصرخ الحق ... الحيّ القيوم ... الذي بيده ملكوت كل شيء ...

وهذا هو يقين التوحيد ... ويقين التفريد ...

انه ينادي ... من أرسل اليه البلاء ... أن يكشف عنه البلاء ...

وهذا أعلى أنواع الصبر ...

لم يلجأ إلى الأسباب ... ولم يستصرخ الأشياء ...

وإنما هو يصرخ إلى الله ...

ومتى كان صراخك إلى الله ... فقد فهمت هدف البلاء ...

أما إذا كان صراخك إلى شيء سواه ... فقد أصابك الغباء كل الغباء !..

والأنبياء أساتذة التوحيد ... وأئمة التفريد ... وقادة التفريد ...

إذا صرخوا صرخوا إليه ... وإذا استغاثوا استغاثوا ربهم ... وإذا نادوا نادوا ربهم !.

انظر ... ؟!

« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » !.

نادانا ؟!.

أعرض عن الأغيار كلها ... وجاءنا ... نحن ...

من أجل ذلك ... كنا له « فلنعم المجيبون » !

أو انظر ... !؟

« أعوذ برضاك من سخطك

« وبمعافاتك من عقوبتك

« وبك منك » !..

تجريد ... توحيد ... تفريد ... ثم تفريد !..

اللهم صل وسلم وبارك ... عليهم أجمعين !..

ومن هذا البحر الشمشماني :

« وأيوبَ إذا نادى ربه

« اني َمسَّني الضُّرُّ وأنت أرحم الراحمين » !..

وأيوب ... إذا نادى ؟!.

إذا نادانا ... نحن ... ولم يلتفت إلى شيء سوانا ... قط ...

فلما علمنا ... أن عبدنا ... ينادينا ... نحن ... ولم يشرك في ندائنا ... شيئاً قط ...

سارعنا ... اليه ... ونحن أسرع المجيبين !..

جمال عجيب ... فيه مفتاح اجابة الدعاء ...

إذا ناديته هو وحده ... حقاً ... استجاب لك فوراً ...

أما إذا خالط نداءك أي نوع من الشرك أو الالتفات ...

فإنه لا يلتفت اليك ... وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك !..

لماذا ؟!. لأنك إذا أشركت في ندائه شيئاً... فأنت في الحقيقة ما ناديته... وإنما ناديت غيره ... فلا شأن له بك !..

فإذا سمعته سبحانه يقول :

« وأيوبَ إذا نادى » ... فاعلم فوراً ... أن ها هنـــا نداءً عليّاً ... نديّاً ... غضّاً طريّاً ...

نداء يهتز إلى ربه اهتزازاً ...

لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ... ولا إلى فوق ولا إلى تحت ... ما زاغ البصر وما طغى ... وإنما هو موجة خارقة حارقة ... تخترق كل شيء ... إلى

ربها ... ثم تسجد بين يديه هاتفة ...

« اني مسّني الضُر » ...

« وأنت أرحم الراحمين » !..

ثم انظر إلى جمال التعبير ... وجمال التحنان ... وجمال الثناء ... حقـــاً انهم أنبياء !..

مسني الضُر ؟!.

كلمتان اثنتان ... لخّص فيهما قصته كلها ... وهذا أول آداب الحضرة... فما يجوز اللغو في حضرة علام الغيوب ...

مسني ؟!. وليس أحرقني وآلمني ... وهصرني ... ولكن مسني ؟!.

مجرد مساس !..

الضُر ؟!. هو الذي مسني ... وليس أنت ؟!. نسب المس إلى الضر ... وهذا أدب رفيع مع علمه بأن كل شيء من الله !..

ثم ماذا ؟!. ثم أثنى عليه أحسن ثناء ... وأنت أرحم الراحمين !..

أنت ؟!. وليس أحد غيرك ... وهـــذا توحيد ... وحصر الرحمة فيه سبحانه ومنه ...

أرحم الراحمين ... ارحم بي من نفسي ... وولدي ووالديّ ... وكل شيء ...

فما رحم أحد أحداً ... إلا برحمتك أنت ...

وما فعلت ما فعلت بي ... إلا من فرط رحمتك بي ... وهذا ثناء آخر ...

فليس هناك أي اثارة من ضجر ... أو سخط ... أو شكوى مما نزل به...

ولكن أنت أرحم الراحمين ...

بلائي ... وآلامي ... وبكائي ... وأحزاني ... وناري التي احترق فيها كل أولئك دلائل على أنك أرحم الراحمين ...

جردتني ... لتعلمني التوحيد ...

وسلبتني ... لتفهمني التفريد ...

وفزّعت الناس مني ... لتؤدبني أحسن التأديب ...

وأن هذه العلائق كلها ... تذوب وتتلاشى ... إذا سُلّط عليها شعاع الفزع ...

« إذ تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا وتقطعت بهم الأسباب » .

« يوم يفر المرء من أخيه .

« وامه وابيه .

« وصاحبته وبنيه » !..

انها علائق مؤقتة ... إذا ضُربت بالفزع ... تساقطت كلها ...

وتلألأت حقيقة واحدة أوحدية ...

أنه لا ثمّ ... إلا رب وعبد ... وعبد ورب !..

وأنت أرحم الراحمين !..

كيف كان يمكن لي أن أفهم هذا كله ... لولا ما أصابني من بلاء ؟!.

كم فهمتُ وفهمت ؟!

كم تعلمت وعلمت ؟!

كان مالي ... وكان أولادي ... وكان جسدي ... حجبا كلها ...

فأسقطها بالبلاء ...

فكشطت كلها ... فأبصرت الحقيقة ...

انه لا يبقى لي سواك ...

وأما هؤلاء جميعاً ... انما هي غشاوات على العيون ...

أنت ... أنت ... الباقي ... وحدك ...

« كل شيء هالك إلا وجهه » !..

هلكوا جميعاً ... وبقيت أنت ...

فتعلمت أن التوجه ينبغي أن يكون دائماً إلى وجهك ... أنت وحدك !..

وتلك رحمة أخرى ... عاينتها عملياً ... في بلائي ... ودليل على أنك أرحم الراحمين ...

وأنت أرحم الراحمين ؟!.

حين تفجرت من قلب أيوب ... تشعشعت ذات اليمين وذات الشمال ... بحاراً وأنواراً وأنهاراً ... لا يحصيها إلا الله !..

وأنت أرحم الراحمين ؟!.

لأن رحمته لا تنفذ ... ورحمة العباد تنفذ ...

وشتان بين محدود ولا محدود ...

قد يرحمك العبد مرة ومرتين وثلاث مرات ... ثم يضيق بك ... وتثقل عليه ... لأن طاقته محدودة ... أما ربك فيرحمك طيلة حياتك ... ولا يمل من رحمتك ... ولا تثقل عليه ...

وفرق آخر بين رحمة العبد للعبد ... ورحمة الرب للعبد ...

الرب يرحمك بلا عوض ... وبلا ثمن يتقاضاك إياه ...

أما العبد فيرحمك ... وعينه تلحظ العوض وإن لم يُبدها لك !..

وفرق آخر ... ان رحمة الله للعبد ... تشريف بلا تكليف ...

أما رحمـــة العبد للعبد ... فهي تطويق لك بالجميل والمنّة ... وأنت مطالب بسداد الدين اليه ... وهذا ثقل عليك !..

مَن تلقّى الرحمة رأساً من عنـــد الله ... « رحمةً من عندنا » ... فقد رُحم الرحمة التامة بلا مقابل ...

أما من تلقاها من العباد ... فقد استعبدوه وهم لا يشعرون !..

ووضعوا في عنقه الأغلال وهو لا يشعر !..

فأيوب إذ نادى ... أرحم الراحمين ...

إنما يريد أن يقول لربه : اريدها منك أنت ... لا أريدها من عبد من العباد ... ولا من طبيب من الأطباء ... ولا من سبب من الأسباب ...

حتى لا يكون لأحد عليّ من نعمة تُجزى ...

ولا لأحد من مِنّة يمنها عليّ ... ان شارك في شفائي ودوائي ...

اللهم لا داء ولا دواء ... ولكن هناء في هناء ..

ان أيوب هنا ... يقتحم جميع نواميس الأسباب ... ويدمرها تدميراً ...

ويئز إلى ربه أزيزاً ...

اشفني أنت ... لا أريد شفاء إلا منك أنت ...

نحن معاشر الأنبياء ... لا نوجه وجوهنا إلا اليك ...

لا نعرف أحداً سواك ...

نحن غرباء في خلقك ... وأنت ولينا ومولانا ... وأنت تتولانا ...

وأيوبَ ... إذ نادى ربّه ؟!.

كان يناديني ... أنا ...

ما وجدتُ ... في ندائه ... شركاً ما ... وإنما أنا يناديني ...

وجدته موقناً ... أني أنا الشافي ... أنا الكافي ...

فلنعم النداء ...

ولنعم المجيبون !..

وأيوب ... إذ ... نادى ؟!...

فــرق . . .

ما بين ندائهم . . . وندائنا . . . كفرق ما بين الأرض والسماء . . .

فالأنبياء إذا نادوا ربهم . . . نادوه . . . نداء كليّاً . . .

أما نداؤنا فنداء جزئي . . .

مقاماتهم العُلى . . . ودرجاتهم الحُسنى . . . تجعلهم دائماً يبصرون أبصاراً كُليّاً . . .

ومقاماتنا الدنيا . . ودرجاتنا السفلى . . . تجعلنا دائمـــاً نبصر أبصاراً جزئيـــاً ! .

ذلـكم قانون . . . ولن تجد لسُنّة الله تبديلا ! .

وفي سورة تحمل اسمهم « سورة الأنبياء » . . .

يدوي في مسامعنا ذلك الناموس . . .

كأنه يراد أن يقال . . . نداء الأنبياء شيء . . . ونداءكم شيء آخر . . .

اسمـــــع :

« ونوحا إذ نادى من قبل ، فاستجبنا له فنجيناه . . . »

واسمع : « وأيوبَ إذ نادى ربه . . .

« فاستجبنا له فكشفنا . . . »

أو اسمع : « وذا النون ... فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ».

« فاستجبنا له ونجيناه من الغم ...

أو اسمع : « وزكريا إذ نادى ربه ...

« فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ... » ! .

ثم انظر إلى تلكم البدائع ...

ونوحاً إذ نادى ... فاستجبنا له ...

وأيوب إذ نادى ... فاستجبنا له ...

وذا النون ... فنادى ... فاستجبنا له ...

وزكريا إذ نادى ... فاستجبنا له !.

كلٌ نادى ... وكلٌ ... فاستجبنا له !.

فلما كان نداؤهم كلياً ... كانت الاستجابة لهم ... كلية ... من مقام جمع الجمع ... فاستجبنا ...

نا ؟! ... إشارة إلى الاستجابة الكلية !

لم يقل ... فاستجاب لهم ربهم ... وإنما ... فاستجبنا ...

كما نادوه ... من أعلى مقام ... أعطاهم من أعلى العطايا ...

كما نادوه ... من كل الكل ... أعطاهم من كل الكل ...

كما أفردوه بالنداء ... أفردهم بالعطاء ...

أما نوح ... فكان ما كان ... « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ...

« وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدر » .

كل النواميس تُلغى فوراً ... من أجل عويناث عبدنا نوح !.

كل الأرض ومن عليها يغرق ... ويبقى نوح وحده ... ومن معه ... كما ناداناا ... وحدنا ...

« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » !

وأما أيوب ... فلتُكسر جميع نواميس الأمراض ... وليبرأ فوراً ... من جميع أمراضه الظاهرة والباطنة ... وليَمد فوراً ... خيراً مما كان عندما صببنا عليه البلاء صباً !.

إذا شئنا ... فعلنا ...

نحن الله ... جعلنا النواميس ... تقييداً للخلق ... ولا تقيدنا ...

وأما يونس ... فلتبطل ... فورا جميع النواميس ...

أما الحوت ... فلا تتحرك أجهزته لهضمه ...

وليلفظه فوراً ... بالعراء ... ولتنبت عليه فوراً شجرة من يقطين تظله من وهج الشمس ...

نحن جعلنا النواميس ... ونحن نبطلها متى شئنا ... لمن شئنا ... من شاءنا ... شئناه !.

وأما زكريا ... فلتُكسر نواميس التوالد فوراً ...

ولتحمل زوجه العجوز العقيم ... فوراً ... وليخرج يحيى منها ...

« كذلك قال ربُّكَ هو عليَّ هيِّن ... » ...

وانظر إلى تلك الجملة ... تلكم الفاء ... من فاستجبنا ... تتكرر أربع مرات ... في أربع استجابات ...

إشارة إلى الفورية ...

فوراً ... استجبنا ...

من مراتب القدرة التي لا تتناهى ... تنزلت إليهم الاستجابة المقدسة ...

فلا نواميس ... ولا قوانين ... ولا قيود ... ولا سدود ... ولا زمان .. ولا مكان ...

ولا سفسطة عقلية ... ولا نظريات علمية ...

ولا شيء من هذا الهباء ... الذي يصدر عن الناس ... وما آراؤهم إلا هباء منثورا ... إذا سطعت شمس القدرة !.

فإذا سجلت سورة الأنبياء ... ونوحاً إذ نادى ... وأيوب إذ نادى ... وذا النون ... فنادى ... وزكريا إذ نادى ...

إنما يراد أن نلتفت إلى بحر عميق لسُجّي ...

إن نداء هؤلاء الأنبياء غير ندائنا جميعاً ...

هم ينادون الله ... بكل أسمائه ... وكل صفاته ... وكل شئونه ... وكل أفعاله ...

يستصرخون القادر ... الذي لا تتناهى قدرته ...

يستغيثون المغيث ... الذي لا يتناهى غوثه ...

ينادون الرحيم ... الذي لا تتناهى رحمته ...

يدعون المجيب ... الذي هو نعم المجيبون ...

أسقطوا الأسباب كلها ... وأسقطوا النواميس كلها ... وأسقطوا الأغيار كلها ... وركّزوا عيون قلوبهم ... عليه ... سبحانه ... وحده ...

فلما علم منهم ذلك ... أعطاهم هنالك !.

« هنالك ... دعا زكريا ربه ... » !

فافهم ... واعلم ... إن الأنبياء ذروة الذروة ...

ونداؤهم ذروة الذروة ...

فلما تسنموا العُلى ... أعطاهم العطايا العُلى !.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون .

وسلام على المرسلين .

والحمد لله رب العالمين !.

هذا ... مغتسل بارد ... وشراب ؟!...

نداء . . .

فسمعه ... قبل أن يناديه :

« إنّي مسّنيَ الشيطان بنُصْب وعذاب » !.

فاستجبنا له ... قبل أن يتم نداءه :

« اركُضْ برجلك » ...

كما أنت يا عبـــدي ... لا أكلفك مشقة التحرك من مكانك ... فأنت لا تستطيع الحركة ... وأنا أرحم الراحمين !.

كما أنت ... على حالك ... الذي أنت عليه ...

فقط ... **« اركُض برجلك »** ... اضرب الأرض أي ضربة ... مجرد مساس برجلك ... قدر ما يمكنك الحركة ... فأنا أعلم أنك لا تستطيع الحراك ...

وسمعها أيوب ...

وهو يتلوّى من الآلام ...

وتتلوى منه الآلام ...

وضرب الأرض بقدمه ضرباً طفيفاً !.

فماذا كان ؟!.

كان ما لم يكن في الحسبان !.

انفجرت ... عينان ...

نضاختان ... تجريان ...

وسمعه يقول له ... في حنان ... ليس كمثله حنان ...

« هــــذا » الذي كان ...

« مُغتسلٌ باردٌ » هذه العين تغتسل فيها ... جعلناها ماءً بارداً ... سلسبيلا ... لتطفيء حرارة جسدك المشتعلة ...

« وشرابٌ » وهذه العين الأخرى شراب سائغ للشاربين ... اشرب من مائها ... يبرأ باطنك فوراً !.

وألقى أيوب نفسه ... إلى ماء العين الأولى ... وهي تفور ...

فذهب عنه فوراً ... جميع القروح ... وجميع الأذى الذي كان بظاهر جسده ...

ثم شرب من ماء الثانية ... فذهب عنه جميع داءاته الباطنة !.

ووُلد أيوب مولوداً جديداً ...

وانقلبت صورته ... إلى أحسن صورة ...

وانقلبت هيأته ... إلى أجمل هيأة ...

واهتز أيوب مرة أخرى ... قوة ... وشبـــاباً ... وجمالا ... وصحة ... ونضارة ... وطيبا !.

واغتسل أيوب من فرحته ... عريانا ... في العين الأولى ... كلما اغتسل مرة ... اكتسب نضارة جديدة ...

« تعرف في وجوههم نضرة النعيم »

وشرب من العين الأخرى ... مرة ومرة ...

كلما شرب مرة ... اكتسب بُرءً جديداً ...

فهو يرقى من صحة إلى صحة أعلى ...

كل أولئك ... لم يستغرق زمناً ما ...

وإنما قبل أن يناديه سمعه ...

وقبل أن يحدد مطلبه ... أنزل إليه المطلوب ... وزيادة ...

وبمجرد أن اغتسل عريانا ... برىء تماما ظاهره ... واكتسى جلده أجمل الألوان وأبهجها !

وبمجرد أن شرب ... برىء باطنه وبرىء ...

وها هو أيوب ... أجمل أهل الأرض صورة ...

وأقوى أهل الأرض قوة ...

وأحسن الناس صحة .

فانظر كيف كان ... وانظر الآن ما كان !..

كل أولئك ... كان في غير ما زمان !..

« كلمح البصر أو هو أقرب » !..

بل ... هو أقرب ... حيث لا زمان !..

انما الزمان والمكان ... نسبتان للإنسان ... ليس إلا !..

فما دليل الغاء الزمان ها هنا ... من الكتاب ؟!.

فاستجبنا ... فكشفنا !؟...

هـــذا ...

هو الدليل ...

« وأيوبَ إذ نادى ربه أني مسني الضُّر وأنت أرحم الراحمين .

« فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُر .

« وآتيناه أهله ومثلهم معهم .

« رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » ا..

هذا هو الدليل « فاستجبنا ... فكشفنا » ...

هذه الفاء ... مرتين ... اثنين ...

دليل ان الاستجابة ... فوراً ... بل هي أقرب من فوراً ...

فإن فوراً تستغرق زمناً ما ...

وها هنا لا زَمَن ...

قبل أن يتموج موجه الينا منادياً ...

تموج غوثنا اليه نازلاً ...

وقبل أن يتأوه الينا بضُره ... فجّرنا له عيون الشفاء ... وألغينا بالنسبة اليه ... نواميس الدواء ...

وناداها ... « وأنت أرحم الراحمين » ... فلم نكلفه أي جهد يبذله ... وإنما اركض برجلك ... كما أنت ...

ولم يخطر على باله ... أن بلاء استمر سبع سنين أو يزيدون ... يذهب في لحظة ...

فأذهبناه ... قبل لحظة !..

ولم يمتد خياله ... ان يسترد أهله ...

« وآتيناه أهله » .

ولم يذهب خياله ... ان نُضاعف له أولاده ... فضاعفناهم له ...

« ومثلهم معهم » !..

ولم يتخيل أن يسترد أمواله ... فوهبناها له ... أضعافاً مضاعفة ...

لماذا ؟!.

« رحمة من عندنا » رأساً ... بلا أسباب ... بلا نواميس ...

إذ نادانا « وأنت ارحم الراحمين » فحقّ ... أن نعطيه ... من مراتب « أرحم الراحمين » ...

ورحمتي التي وسعت كل شيء ... منها ما يُساق إلى العباد ... عن سبيل الأسباب ...

ومنهـــا ما نُنزله ... رأساً منا ... بلا أسباب ... **رحمة من عندنا** ... فلا أسباب !..

نعمة ... الجسد ؟!...

تجـربة ...

أيوب ... تجربة خطيرة ... على الغاية من الخطورة ...

يجب على كل عاقل ... أن يتأملها طويلا ...

لأنها تجربة كل إنسان ... ذكراً كان أو أنثى ...

فأيوب كان ينعم بنعيم الصحة ... في أكمل مراتب الصحة ...

وفجأة ُسحبت منه الصحة كلها ... وتحول إلى جيفـــة ... لا يموت فيها ولا يحيى ...

وفجأة رُدّت إليه الصحة ... أتم ما تكون الصحة والعافية ...

فما معنى هذا كله ؟!.

مراتب ثلاث ... صحة ... لا صحة ... ثم صحة ...

المرتبة الأولى ... الصحة قبل البلاء .. لا يشعر أيوب فيها تمام الشعور .. بأنها نعمة وأي نعمة ... لأنه لم يذق بعد فقد الصحة ...

صحيح انه شاكر لربه نعمة الصحة ...

ولكن هيهات أن يدرك حقيقة النعمة ... حتى يكوَى بنار فقدها ... ويصل إلى مستوى اليأس من عودتها إليه مرة أخرى ...

المرتبة الثانية ... فقد الصحة ... والتحول إلى كتلة متقيحة منتنـة متدودة ...

وها هنا يدرك أيوب ... كم كان في نعمة ... لم يقدرها حق قدرها ...

كان يمسي ويصبح معافي في بدنه ... والآن ... يمشي ويصبح معذباً في بدنه ...

المرتبة الثالثة .. عودة الصحة ... وها هنا يعود أيوب مدركا مدى نعمة الصحة ... لأنه ذاق فقدها واليأس من عودتها ! ..

ومن هنا كانت خطورة تجربة أيوب ... لأنها تحكي تجربة كل إنسان ...

فالناس في سكرة القوة ... لا يشعرون أنهم في أعظم نعمة في الدنيا ... نعمة الصحة ...

فإذا ما ضُربوا بالأمراض ... صاحوا وناحوا ... وضجّوا وعجّوا ... وأدركوا أنهم كانوا حقاً في نعمة ليس بعدها نعمة ... ولكنهم كانوا يجهلون ! ..

« انه كان ظلوماً جهولا » ! ..

والشباب وهو في سكرة الشباب ... لا يبالي بما هو فيه من نعمة الصحة ... بل لا يراها نعمة ... وإنما النعمة عنده ... كيف السبيل إلى المال ! ..

وهذا جنون و « **الشباب شعلة من الجنون** » ! ..

حتى إذا ذهب الشباب ... وأقدم المشيب بوجهه الكئيب ... تراهم يتباكون على أيام الشباب ... ويتحسرون على افلات الصحة ... إلى حيث لن تعود ! ..

انه الإنسان ان لم يُقلّب بين الإيجاب والسلب ... لا يشعر بالإيجاب ولا بالسلب ...

وإن لم يقلّب بين العطاء والمنع ... لا يشعر بنعمة العطاء ولا بنقمة المنع ...

ومن هنا تموّجته المقادير ... بإذن القدير ... بين العطاء والبلاء ... بين الإيتاء والأخذ ... بين الإيجاب والسلب ... بين الشيء وضده ...

وكان أدب الشريعة النـــازلة اليه من ربه ... إذا أعطي شكر ... وإذا ابتُلي صبر ..

ولو كان الإنسان مجمداً على اتجاه واحد كالملائكة – مثلا – مجبولون على الطاعة ، ممنوعون من المعصية ... لأمكن أن يجمد على حال واحد ...

ولكن الإنسان ... مرآة لجميع الصفات الإلهية ...

والصفات الإلهية ... تجمع بين الأضداد ...

فتحتم تقليبه تبعاً لذلك ... بين الأضداد ...

لأن أي حركة من الأصل ... تنعكس فوراً في المرآة ...

هذه هي القضية ... وهذا أصلها ...

ولذلك يبدو مضحكاً جـــداً أمر أولئك الذين يحلمون بعالم مثالي لا فساد فيه ...

وهذا لن يكون ... إلى أن تقوم الساعة !..

ولكنهم ما زالوا يحلمون !..

انما الذي كان ... وسوف يكون ...

ان هذا الإنسان ... خير وشر ... طاعة ومعصية ... غنى وفقر ... علم وجهل ... قوة وضعف ... حياة وموت ... ايمان وكفر ... وهكذا إلى ما لا يتناهى من الأضداد ...

ومن تقليبه وتقلبه ... بين الشيء وضده ... تبرز الحقيقة الآدمية ... وتكمل وتتكامل ...

لقد كان الملائكة يحلمون بعالم مثالي « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » . . .

ودُهشوا كيف يكون هناك عالم فيه فساد وشر « أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء » ؟!.

فما رأيهم الآن ... وقد ظهرت الحقيقة الآدمية ... بتضادها الذي لا يتناهى ؟!

فظهرت الحكمة الإلهية الجليلة الجميلة من خلق الإنسان ؟!

ومن هنا كانت تجربة أيوب ... هي اختيار فرد من النوع الآدمي ... وتقليبه بين الأضداد ...

بين الغنى ... والفقر ... بين منتهى الغنى ... ومنتهى الفقر ..

بين منتهى الصحة ... ومنتهى المرض ...

بين منتهى الأولاد ... ومنتهى فقد الأولاد ...

الشيء وضده ...

العطاء والبلاء ...

المنح والمنع ...

الإيجاب والسلب ...

فلما مرّ أيوب على الضدين ...

أجريت عليه تجربة جديدة ... وهي المرحلة الثالثة ... مرحلة إعادة كل شيء فقده اليه ...

بعد أن تأكد تماماً ... من استحالة إعادة ما فقد ... واستبعد الموت .

فقد كان يمكن أن تنتهي تجربة أيوب ... عند المرحلة الثانية ...

أي رجل مرض حتى أشرف على الموت ... ثم يموت ويُقبر ... وتنتهي القصة ... كما هي العادة ...

ولكن الإضافة هنا ... تزيد التجربة بهجة للناظرين ...

فاستنقاذ مريض تحتم موته ... فجأة ... وردّه إلى الصحة التامة ... يثير عجب المتعجبين ... ويلفتهم إلى القدرة التي لا تتناهى ...

ثم اعادة الأولاد الذين هلكوا من سنين ... واستحالت عودتهم ... تثير التفات الناس أكثر وأكثر ... إلى القدرة الجبارة التي تفعل ما تشاء ...

ثم مضاعفة هؤلاء الأولاد ... أعجب وأعجب ... وإخراجهم من أبوين عجوزين أعجب وأعجب ...

ثم رد الأموال أضعافاً مضاعفة ... تفجر عجب الناس ... من قدرة الله !..

ونُركّز هنا بالذات ... على أعجوبة ... أو معجزة ... عودة الجسد...

كان أيوب ... كتلة من التدود والتقيح والتعفن ...

وفي أقل من لحـــظة ... انقلب شاباً رائع الحسن والشباب ... يتفجر حيوية ونضارة وجمالاً ...

وأوتي فجأة أحسن جسد يمكن أن يكون لإنسان !..

وتمت عليه آنذاك ... نعمة الجسد !..

وها هنا سؤال خطير ...

هل الجسد نعمة أو هو نقمة ؟!.

ومتى يكون الجسد نعمة ... ومتى يكون نقمة ؟!.

والجواب ... في اختصار شديد ...

الجسد ... أو الجسم السليم ... أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان ...

فهو التركيب العجيب ... الذي تتلاقى فيه بدائع القدرة الإلهية ...

وهو موزون ... أو متوازن ... بنِسَب عجيبة ... حيرت الأفهام ...

وأي تخلخل في تلك النِسَب ... وهو ما نسميه بالمرض ... يحدث اضطراباً في التركيب كله !..

« كمثل الجسد الواحد .

« اذا اشتكى منه عضو .

« تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » !..

وهو أعظم نعمة ... لأنه التركيب الأوحد ... الذي تبساشر به الحياة كلها ...

وهو أجل نعمة ... لأنه التركيب الذي تحقق به كل ما تريد ... علواً أو سفولاً ...

ويمكنك به ... وليس بغيره قط ... أن ترتفع إلى أعلى عليين ...

وبه هو نفسه ... وليس بشيء غيره قط ... أن تسفل إلى أسفل سافلين ...

فهو أنت ... وأنت هو ... وها هنا ... النعمة الجليلة ...

الجسم ... هو الكون كله ... مختصراً ... مصغراً ... فيك ...

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر .

وهو الأداة الوحيدة ... التي تملكها ... لتعبر عن أي شيء تريده ...

فما أعظم الجسم ... وأعظم به من نعمة !..

أما متى يكون الجسم نعمة ... ومتى يكون نقمة ؟!.

فالجواب ... بسيط بساطة تثير ضحك أولي الألباب !..

هذا الجسم الذي هو أعظم نعمة أنعم الله بها عليك ...

إذا أطعت الله به ... فهو النعمة العظمى ...

وإذا عصيت الله به ... فهو النقمة الكبرى ...

« قضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان » !..

والنتيجة حتمية كذلك ...

إذا أطعت الله بجسمك ... انتهيت إلى نعيم الأبد ...

وإذا عصيت الله بجسمك ... انتهيت إلى عذاب الأبد ...

قضية بسيطة ولكن بساطتها كبساطة البحر ... أعماقه بعيدة... وظاهره بسيط !..

ووهبنا له ... أهله ...

ومثلهم معهم ؟!...

هـذا ...

هي المعجزة الثانية ...

المعجزة الأولى ... كشف الضُر ظاهراً وباطناً فوراً ...

والثانية ... إحياء جميع أولاده ... الذين ماتوا دفعة واحدة وخر عليهم السقف من فوقهم ... بعثهم بأعيانهم ... وإحيائهم فوراً ...

فما كاد أيوب يفاجأ بعودة الشباب والقوة اليه ...

حتى فاجأته معجزة أخرى ... هي إحياء جميع أولاده وردهم اليه !..

فما دليل ذلك ؟!

دليل قوله تعالى :

« ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب » !..

وقوله تعالى :

« فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » !..

وها هنا إشارة جبّارة ...

كما فاجـــأه بذهاب ماله ... ثم فاجأه بذهاب ولده ... ثم فاجأه بذهاب صحته ...

وتابع عليه مفاجآت البلايا ...

فإنه لما تأذّن بالعطايا ... عامله بنفس الأسلوب ... أسلوب المفاجأة ...

ففاجأه بكشف جميع ما به من ضُر ...

ثم أتبعه بمفاجأة أخرى ... هي إحياء جميع أولاده مرة واحدة ... كما أهلكهم مرة واحدة ...

ثم اتبع ذلـــك بمفاجأة أخرى ... هي رد أمواله اليه مرة واحدة ... كما أهلكها دفعة واحدة ...

وهكذا العطايا مفاجآت متتابعات ...

كما نزلت به البلايا مفاجآت متتابعات !..

فكيف ردّ اليه أمواله دفعة واحدة ؟!.

مفاجأة ... إعادة ... الثروة؟!...

« عن أبي هريرة رضي الله عنه ،

« عن النبي صلى الله علية وسلم قال :

« بينا أيوبُ يغتسلُ عُرياناً .

« خرّ عليه رِجْلُ جرادٍ من ذهبٍ .

« فجعل يَحثي في ثوبه .

« فنادى ربُّه :

« يا أيوبُ ألم أكنْ أغنيتك عما ترى ؟

« قال : بلى يا ربّ ولكن لا غِنَى لي عن بركتِك » .

[رواه البخاري في صحيحه]

« خرّ » سقط .

« رِجْل » جماعة من الجراد ... أي سِرب من الجراد .

« فنادى ربُّه » بواسطة أو بلا واسطة .

« يَحثِي » يأخذ بيديه جميعاً ... يلتقط .

ومن حديث ابن عباس « فجعل أيوب ينشر طرف ثوبه فيأخذ الجـــراد فيجعله فيه ، فلما امتلأت ناحية نشر ناحية » .

وقال وهب : « تطاير الجراد من الماء الذي اغتسل فيه .

« وكان له اندران ، أحدهما القمح ، والآخر الشعير ، فبعث الله سحابتين ، فأفرغت احداهما على اندر القمح ذهباً ، والأخرى فضة .

« وتطاير الجراد على الكل .

وإنما خص الجراد لكثرته » .

هذه هي المفاجأة الثالثة ...

بينما أيوب يغتسل عرياناً ... فرحاً بذهاب الضر كله عنه ...

إذا بأسراب من الجراد ... تتساقط عليه ...

وتملأ السماء من فوقه ... ثم تخر متساقطة على الأرض ...

وفوجىء أيوب ... أن هذا الجراد شيء عجيب ...

إنه جراد من ذهب ...

فجعل يطاره ... ويمسك به ... ويجمعه أكواماً بين يديه ...

لقد تكوم الذهب في لحظة ... تحت يديه ...

انها معجزة ... كما فاجأه بالضربة التي قضت على ثروته مرة واحدة

ألقى اليه بأضعاف ثروته مرة واحدة ...

وهذه ... بتلك !..

فانظر ... عجائب القدرة ...

اركضْ برجْلك ...

ضربة بسيطة بقدمه ... انفجرت عينان فوارتان ...

هذه مغتسل ... وهذه شراب ...

وعادت الصحة ... وعاد الشباب فوراً ...

ثم مفاجأة ثانية ... إحياء جميع أولاده الذين هلكوا جميعـاً ...
فبعثهم جميعاً ...

ثم مفاجأة ثالثة ... إعادة الثروة التي هلكت مرة واحدة ... أعادها مرة واحدة ... أكوام من جراد من ذهب !..

البلايا كانت مفاجآت متتابعات ...

والعطايا ... مفاجآت ... بل معجزات متتابعات ...

فهل وقفت العطايا عند هذا ...

لا ... فإن الكريم ... إذا أكرم ... أكرم إكراماً لا يخطر على القلب ...

فماذا كان ؟!.

ومثلهم ... معهم !!...

هذه مفاجأة أخرى ...

ولكن على مَهَل ... لتكون أوقع وأحلى وأبهج ...

« ووهبنا له أهله » ...

كان هذا بإحياء أولاده جميعاً ... مرة أخرى ...

حتى هنا تمت النعمة ...

ولكن هناك زيادة ... « ولدينا مزيد » ...

فما هو المزيد ؟!

« ومِثلَهم معهم » ...

أعاد الشباب إلى أيوب ... وهذه معجزة ...

وأعاد الشباب إلى زوجته العجوز ... وهذه معجزة ...

ورزقهما بنين وبنات ... مِثل عدد أولادهم الذين أحياهم ...

وإنما جعل ذلك على مَهل ... ليكون أمتع لأيوب وزوجه ...

فإن عودتهما إلى الشباب ... معناه انهما يكرران حياتهما مرة أخرى ... وتلك معجزة لهما ...

واستمتاعهما بالشباب ... والذرية مرة أخرى ... هذه زيادة من عند الله ... « رحمة مِن عندنا » ... اختصهما بها ...

فإن الناموس العام... أن أحداً... إذا شاب ... لن يعود إلى الشباب!..

ولكن أيوب ... أعيد إلى الشبـــاب ... وعادت زوجه العجوز ... فتاة حسناء ...

وكررا الحياة مرة ثانية ...

وأطيلت هذه المنحة ... بالأسلوب الطبيعي ... لتطول المتعة للزوجين...

إذ لو رزقهم الأولاد مرة واحدة ... على أسلوب المعجزة لضاعت عليهم فرصة المتعة الطويلة ...

ولكن الجمال ... لن يعود إلى الشباب ...

وأن يباشرا حياتهما الطبيعية مرة أخرى ...

ليطول استمتاعهما ... وإحساسهما بعظيم فضل الله عليهما ...

قالوا :

« اصابة البلاء على رأس ثمانين سنة » .

أي شيخاً عجوزاً ...

وعن ابن عباس :

« مكث في البلاء سبع سنين ...

« وسبعة أشهر ، وسبعة أيام ، وسبع ساعات » .

وقالوا :

« وكان عمره حين مات مائة وستا وأربعين سنة » .

أي أن فترة حياته بعد ذهاب البلاء عنه هي ... تسع وخمسون سنة ...

٥٩ سنة عاشها أيوب شاباً ... ووُلِد له فيها « ومِثلهم معهم » ...

أي يستمتع بأولاده القدامى ... ومعهم ما يُولد له من زوجه الشابة الجميلة من أطفال ...

وهذه مِنّة من الله عليه ... جزاء صبره الجميل ...

فله أولاد كبار ... رجالاً ونساءً ...

وله أولاد أطفال ... ذكوراً وإناثاً ...

ويعاشر زوجه ... معاشرة الشاب القوي ... للشابة الحسناء !..

فسبحان مَن أعطى ... وسبحان مَن أكرم !..

وهكذا جمع له كل المطايا ... وزيادة ...

كما ابتلاه بكل البلايا ... وزيادة !..

و « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » ؟!.

أيوب ... كما يراه ...
ابن العربي ...؟!

كما أثبتنا ...

في حياة داود ... وحياة سليمان ... رأي ابن العربي ... فيهما ...
نثبت هنا ... رأي ابن العربي ... في « أيوب » ...
لتتكامل الصورة أمام أعيننا ...
ونرى أيوب ... من زوايا متعددة ... وهذا أكمل وأتم تصويراً ...
وكما هو الشأن ... ما كان من كلام ابن العربي ... أثبتناه بالبنط العريض...
وما كان من كلام الشارح ... القاشاني ... أثبتناه بالبنط الطبيعي ...

فص حكمة غيبية
في كلمـــة أيوبيـــة

قال القاشاني :

« إنما خصت الكلمة الأيوبية بالحكمة الغيبية لكون أحواله عليه الصلاة والسلام بأسرها ، من ابتداء حاله ، وزمان ابتلائه ، وبعد كشف بلائه إلى انتهاء كلامه غيبية .

« لأن الله تعالى أعطاه من الغيب بلا كسب ما لم يعط أحداً ، من المـــال والبنين والزرع والخول والعبيد

« ثم ابتلاه من الغيب ببلايا ، في نفسه وماله وأهله وولده

« ولم يبتل بمثلها أحداً

« ورزقه الله صبراً جميلا وافراً ، بلا شكوى إلى أحد في مدة لم يرزقه مثله أحدا

« ولما بلغ الابتلاء غايته ، وتناهى الصبر نهايته ، ولم يجزع قط ، ولم يشك إلى أحد ، ولم يترك من أعماله وطاعته وأذكاره ، وأنواع شكره شيئاً .

« ـ نادى ربه ـ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ـ فكشف عنه ما به من ضر .

« ووهب له أهله ـ ومثلهم معهم رحمة ـ من عنده وخزانة غيبه .

« وأظهر له من غيب الأرض ، مغتسلا بارداً وشرابا .

« وكل ذلك كان من قوة إيمانه بالغيب ، وثقته بما أدخر الله له في الغيب .

« فكان أمره كله من الغيب » .

قال الشيخ الأكبر :

« اعلم أن سر الحياة سرى في الماء فهو أصل العناصر والأركان .

« ولذا جعل الله من الماء كل شيء حي .

« وما ثم شيء إلا هو حي (١) .

« فانه ما ثم من شيء إلا وهو يسبح بحمده .

« ولكن لا يفقه تسبيحه إلا بكشف إلهي .

« ولا يسبح إلا حي

(١) أشهد أن هذا لا يكون إلا بكشف إلهي .

فقد اكتشف ابن العربي أن كل شيء حي ... منذ مئات السنين ... وهذا ما اكتشفه علماء الذرّة أخيراً ... إن الذرة كائن حي !!!

« فكل شيء حي »

« فكل شيء من الماء أصله » .

قال الشارح :

« اعلم أن الحياة إذا تمثلت وتجسدت ظهرت بصورة الماء .

« وكذلك العلم الذي هو الحياة الحقيقية .

« وهو معنى قوله ــ سر الحياة سرى في الماء ــ

« ولما كان أصل الكل الحياة والعلم، والماء صورتها ، جعل أصل النار الماء .

« فإن الحياة التي هي عين الذات الأحدية ، تمثلت بصورة الأرواح .

« ثم نزلت إلى صور الطبائع .

« ثم تمثلت بصور العناصر .

« فثبت أن من الماء الذي هو صورة الحياة ، كل شيء حيّ .

« وأنه لا شيء إلا وهو حيّ ، كما ذكر .

« فلا شيء إلا وأصله من الماء » .

ثم يقول الامام الأكبر :

« ألا ترى العرش ، كيف كان على الماء ، لأنه منه تكوّن » ؟!

« المراد بالعرش العرش الجسماني : أي الفلك الأطلس .

« وإنما تكون من المـــاء ، لأن الله تعالى خلق أول ما خلق ذرة بيضاء ، فنظر إليها بعين الجلال ، فذابت حياء .

« فصار نصفها ماء ، ونصفها ناراً .

« فكان عرشه على ذلك الماء .

« فالذرة هي العقل الأول ، الذي تكون منه جميع الأكوان .
« والنظر اليه بعين الجلال ، احتجاب الحق تعالى بتعينه .
فإن نظر الجمال تجلى الوجه الإلهي بنوره .
« ونظر الجلال تستره بغيره .
« وذوبانه تلاشيه بماهيته الإمكانية العدمية ، وتكون الأشياء منه .
« فإنه كالهيولى لجميع الممكنات .
« والنصف الناري تكون الأرواح منه بالتعينات النورية .
« ألا ترى كيف سمى روح القدس عند اتصال موسى به ناراً .
« حيث قال ــ بورك من في النار ومن حولها ــ
« وقال ــ آنس من جانب الطور نارا ــ
« والنصف المائي تكون الأجسام منه .
« فإن الهيولى هو البحر المسجور ، أي المملوء بالصور .
« فإنها ماء كلها ، فكان العرش على ذلك الماء .

« ولما كان العقل الأول الذي هو أصل الكل عين الحياة ومثالها ، صح أن أصل الكل الماء ، حتى الهيولى والنار » .

« فطفى عليه » .

أي ظهرت صورة العرش على ماء الهيولى .
« فإن كل ما طفى على ماء ظهر ، وبطن الماء تحته .
« وكذا بطن الهيولى ، بظهور صورة الأجسام فيها » .
« فهو يحفظه من تحته » .

« أي الهيولى يحفظ الصورة العرشية من تحته » .

« كما أن الانسان خلقه الله عبدا فتكبر على ربه وعلا عليه ، فهو سبحانه مع هذا يحفظه من تحته ، بالنظر إلى علو هذا العبد الجاهل بنفسه » .

« وفي نسخة : بربه .

« وكلاهما يستقيم .

« لأن الجاهل بنفسه جاهل بربه وبالعكس .

« وإنما خلق الإنسان عبدا ، لأنه مقيد في تعينه .

« وليست حقيقة العبد إلا صورة تعين الوجود للحق ، المتجلي فيه .

والمتعين لا بد أن يعلو المتعين به المستور فيه وإلا لانعدم .

إذ لا تحقق للمتعين بدون المتعين به .

« فإنه بلا هو هالك .

« فالحق يحفظ العبد من تحته » .

« وهو قوله عليه الصلاة والسلام « لو دليتم بحبل لهبط على الله » .

« فأشار إلى أن نسبة التحت اليه ، كما أن نسبة الفوق اليه ، في قوله — يخافون ربهم من فوقهم ى وقوله — وهو القاهر فوق عباده —

« فله الفوق وله التحت .

« ولهذا ما ظهرت الجهات الست إلا بالنسبة إلى الانسان .

« وهو على صورة الرحمن » .

« لمـــا كانت نسبة الفوق والتحت اليه سواء ، فحفظه لعبده من تحته لا ينافي فوقيته .

فإنه بإحاطته فوقه وتحته .

« هذا بيان الإحاطة وحفظه للعبد من جميع الجهات ،

« فإن الاحاطة والحفظ من الصفات الرحمانية .

« وكونه على صورة الرحمن ، إحاطته بجميع الأسماء .

« فإن الرحمن في جميع الجهات المتقابلة ، لاشتماله على جميع الأسماء المتقابلة .

و « ما » في كما نسبة زائدة ، كقوله ـ فبما رحمة من الله » .

« ثم يقول عملاق الحقيقة :

« ولا مطعم الا الله .

« وقد قال في حق طائفة — ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل —

« ثم نكر وعمم فقال — وما أنزل اليهم من ربهم —

« فدخل في قوله — وما أنزل اليهم من ربهم — كل حكم منزل على لسان رسول أو ملهم — لأكلوا من فوقهم —

« هو المطعم من الفوقية التي نسبت اليه .

« — ومن تحت أرجلهم — وهو المطعم من التحتية التي نسبها الى نفسه على لسان رسوله ، المترجم عنه ، عليه الصلاة والسلام » .

« ومن الحفظ الإطعام ، فإنه من الأمداد الرحمانية ، التي لو انقطعت لهلك العبد .

« وقد قال الله تعالى ـ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ـ

« أي لو أقاموا ما في الكتب الإلهية ، وهيأوا الاستعداد ، لأطعمهم من جميع الجهات .

« والتحتية التي نسبتها إلى نفسه على لسان رسوله وهو قوله « لو دليتم بحبل لهبط على الله » .

« فلو لم يكن العرش على الماء ، ما تحفظ وجوده .

« فانه بالحياة ينحفظ وجود الحي .

« ألا ترى الحي إذا مات الموت العرفي تنحل أجزاء نظامه ، وتنعدم قواه عن ذلك النظام الخاص » ؟!

يعني إذا عدم الحي الحياة التي الماء صورتها ، انحلت أجزاء نظامه .

« وذلك لأن الحرارة الغريزية التي بها حيـــاة الحي ، إنما تنحفظ بالرطوبة الغريزية .

« فحياة الحرارة أيضاً بالرطوبة ، وهي صورة المــاء ، فبفقدانه وجود الموت ، الذي هو افتراق أجزاء الإنسان .

« وهذه مقدمات مهدها لبيان حال أيوب عليه السلام .

ثم عدل إلى قوله »

« قال الله تعالى لأيوب ـ اركض برجلك هذا مغتسل بارداً ـ

« يعني لما كان عليه من افراط حرارة الألم فسكنه ببرد الماء .

« ولهذا كان الطب النقص من الزوائد ، والزيادة في النواقص .

« يعني طبه الله تعالى بنقص حـــرارة الألم ، وزيادة البرد ، والسلام منها .

« فإن الآلام كانت ناراً أوقدها الشيطان ، سبع سنين ، في أعضاء أيوب عليه السلام .

« فشفاه الله منها بهذا الطب الإلهي »

« والمقصود طلب الاعتدال .

« ولا سبيل إليه إلا أنه يقاربه .

« ولا سبيل إلى الاعتدال الحقيقي .

« فإنه لا يوجد في هذا العالم ، كما بين في الحكمة .

« إلا أن الاعتدال الإنساني يقاربه » .

ثم يقول عملاق المعرفة :

« وإنما قلنا ولا سبيل اليه ، أعني الاعتدال .

« من أجل أن الحقائق والشهود تعطي التكوين مع الانفاس على الدوام .

« ولا يكون التكوين ، إلا عن ميل يسمى في الطبيعة انحرافاً أو تعفيناً .

« وفي الحق إرادة ، وهي ميل الى المراد الخاص دون غيره .

« والاعتدال يؤذن بالسواء في الجميع ، وهذا ليس بواقع » .

« أي ولا سبيل إلى الاعتدال في عالم الكون والحضرة الأسمائية ، دون الذات الإلهية ، فإن التمين واللاتمين ، والجمع بين المتنافيين ، والنسبة إلى الأسماء المتقابلة في الحضرة الأحدية سواء .

« وأما في حضرة التكوين فلا .

« فإن الشهود يحكم بالتكوين وتجديد الخلق مع الأنفاس دائماً ، ولا يمكن التكوين إلا عند الانعدام ، وإلا لا يسمى تكويناً ، فإن تحصيل الحاصل محال . أفيدوم الانعدام في الخلق ؟

وذلك عن ميل في الطبيعة يسمى انحرافاً أو تعفيناً .

« والتجديد عن الحق ، وذلك عن ميل للحق يسمى في حقه إرادة ، وهي ميل إلى المراد الخاص .

« والاعتدال يؤذن بالسواء ، وهذا ليس بواقع في الحضرتين المذكورتين .

« وتنفرد به الذات الإلهية بالنسبة إلى الجمعية الواحدية ، دون الربوبية ، يعني نسبة الذات إلى الصفات ، وهي نسبة الأحدية إلى الواحدية .

« وأما في نسبة الإلهية إلى الربوبية فلا بد من الميل دائماً » .

« فلهذا منعنا من حكم الاعتدال »

« أي في هذا العالم » .

« وقد ورد في العلم الالهي النبوي اتصاف الحق بالرضى والغضب وبالصفات » .

« أي المتقابلة » .

« والرضى مزيل الغضب ، والغضب مزيل الرضى عن المرضي عنه .

« والاعتدال أن يتساوى الرضا والغضب .

« فما غضب الغاضب على من غضب عليه وهو عنه راض .

« فقد اتصف بأحد الحكمين في حقه وهو ميل » .

« زوال الغضب عند اتصاف الحق بالرضا ، وزوال الرضا عند اتصافه بالغضب ، إنما هو بالنسبة إلى مغضوب عليه أو مرضي عنه معينين .

« وأما بالنسبة إلى الغضب الكلي القهري الجلالي ، والرضا الكلي اللطفي الجمالي ، فلا يزول اتصافه بهما من حيث كونه إلهاً ورباً مطلقاً .

« وكذلك من حيث غناه الذاتي ، فإنه من حيث كونه غنياً عن العالمين لا يتصف بشيء منهما .

« فظهر أن الميل والانحراف ليس إلا من قبل القابل .

« والربوبية المحضة المقيدة بمربوب معين لظهور حكم الرضا والغضب في القابل ، وعدم ظهوره في غير القابل .

« وأما باعتبار حقيقتي الرضا والغضب الكلين أحكامهما أبداً سرمداً في المرضي عنهم والمغضوب عليهم من العالمين .

« فهما ثابتان لله تعـــالى رب العالمين على السواء ، فلا يتصف بأحدهما بدون الآخر .

« إلا أن حكم سبق الرحمة الغضب أمر ذاتي دائم لا يزال ولا يتغير » .

« وإنما قلنا هذا من أجل من يرى ان اهل النار لا يزال غضب الله عليهم دائماً أبداً في زعمه فما لهم حكم الرضا من الله فصح المقصود .

« فان كان كما قلنا مآل أهل النار الى إزالة الآلام وإن سكنوا النار ، فذلك رضى ، فزال الغضب لزوال الآلام .

« إذ عين الألم عين الغضب إن فهمت » .

« إنما قلنا ان الاتصاف بأحد الحكمين دون الآخر ، لأنه لم يرَ أن غضب الله على أهل النار لا يزول أبد ، ولا يكون لهم حكم الرضا قط .

« فإن كان كما زعموا فالمقصود حاصل .

« وإن كان كما قلنا مآ لهم إلى زوال الآلام مع كونهم في النار ، فذلك عين الرضا لزوال الغضب بزوال الألم » .

« فمن غضب فقد تأذى ، فلا يسعى في انتقام المغضوب عليه بإيلامه ، إلا ليجد الغاضب الراحـــة بذلك ، فينتقل الألم الذي كان عنده الى المغضوب عليه .

« والحق إذ أفردته عن العالم يتعالى علوا كبيرا عن هذه الصفة » .

« على هذا الحد أي الألم » .

« وإذا كان الحق هوية العالم ، فما ظهرت الأحكام كلها الا فيه ومنه ، وهو قوله — وإليه يرجع الأمر كله — حقيقة وكشفا — فاعبده وتوكل عليه — حجابا وسترا .

« فليس في الامكان ابدع من هذا العالم ، لأنه على صورة الرحمن أوجده الله .

« أي ظهر وجوده تعالى بظهور العالم .

« كما ظهر الانسان بوجود الصورة الطبيعية .

« فنحن صورته الظاهرة .

« وهويته روح هذه الصورة المدبرة لها .

« فما كان التدبير إلا فيه ، كما لم يكن إلا منه .

« فهو الأول بالمعنى .

« والاخر بالصورة .

« وهو الظاهر بتغيير الأحكام والأحوال .

« والباطن بالتدبير ، وهو بكل شيء عليم .

« فهو على كل شيء شهيد ، ليعلم عن شهود لا عن فكر .

« فكذلك علم الأذواق ، لا عن فكر ، وهو العلم الصحيح ، وما عداه فحدس وتخمين ، وليس بعلم أصلاً » .

« قد مر أن الحق عين كل شيء .

« فإذا كان عين هوية العالم أي حقيقته .

« فالأحكام الظاهرة في العالم ليست إلا في الله، وهي من الله .

« وهو معنى قوله – وإليه يرجع الأمر كله – حقيقة وكشفاً ، فإنه تعالى باعتبار التجلي الذاتي الغيبي يسمى هو .

« وذلك التجلي هو الصورة بصور أعيان العالم .

« فكان هوية العالم .

« وهوية كل جزء حجابه وستره ، ليتوكل عليه .

« فإنه به موجود ، وهو الفاعل فيه لا فعل للحجاب .

« والحجاب الذي هو العبد ، صورة أنية ربه ، والرب هويته .

« وهو معنى قوله : فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم .

« لأن العبد صورة العالم ، والعالم صورة الرحمن .

« ومعنى أوجده الله ، ظهر بصورته .

« وشبه ظهور وجوده تعالى بظهور العالم ، بظهور حقيقة الإنسان بوجود صورته الطبيعية أي بدنه .

« ثم قال : فنحن ، أي نحن مع جميع العالم صورة الحق الظاهرة .

« وهوية الحق روح هذه الصورة المدبرة لها ، والباقي ظاهر كما ذكر » .

« ثم يدخل الشيخ الأكبر ... الى موضوع أيوب ... عليه السلام ... فيقول :

« ثم كان لأيوب ذلك الماء شراباً بإزالة ألم العطش ، الذي هو من النصب والعذاب ، الذي به مسه الشيطان ، أي البعد عن الحقائق ، أن يدركها على ما هي عليه ، فيكون بادراكها في محل القرب .

« فكل مشهود قريب من العين ولو كان بعيداً بالمسافة .

« فان البصر يتصل به من حيث شهوده ، ولولا ذلك لم يشهده أو يتصل المشهود بالبصر كيف كان ، فهو قريب بين البصر والمبصر » .

قال الشارح :

« سمى الشيطان شيطاناً لبعده عن الحق والحقائق .

« من شطن شطوناً إذا بعد .

« وقيل من شاط إذا نفر .

« فهو فيعال أو فعلان بمعنى المبالغة ، أي البعيدة في الغاية .

« ولهذا أطلق الشيخ رضي الله عنه تسميته بالمصدر للمبالغة ، كقولهم : رجل عدل .

« والمراد الذي هو في غاية البعد عن إدراك الحقائق على ما هي عليه .

« وإذا كان كذلك فهو في غاية البعد عن الحق .

« لأن المدرك للحقائق على ما هي عليه ، يكون بإدراكها في محل القرب .

« ألا ترى أن المشهود قريب من العين ولو كان بعيد المسافة ؟

« لأن البصر يتصل به على مذهب خروج الشعاع ، أو يتصل المشهود

بالبصر على مذهب الانطباع ، فإنه ليس هذا موضع تحقيقه ، وكيف كان فالمشهود قريب بين البصر والمبصر .

« وإنما كان الشيطان لا يدركها على ما هي عليه لكونه على صورة ولهذا الانحراف العيني .

« أي جبلت عينه على الانحراف والميل عن العالم العقلي إلى العالم السفلي ، ولهذا كان من الجن » .

« ولهذا كنى أيوب في المس فأضافه إلى الشيطان مع قرب المس ، فقال : البعيد مني قريب لحكمه فيّ » .

« أي ولأن الشيطان بعيد عن محل القرب كنى في المس : أي أوقعه على كناية المتكلم مضافاً إلى الشيطان فقال ــ إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ــ أي خصني البعيد بالمس ، الذي هو غاية القرب لحكمه فيّ ، بالضر الذي هو النصب والعذاب .

« شكى إلى الله من غلبة حجابية تعينه ، وإلا لم يكن للانحراف فيه حكم .

« فإن الشيطان الذى هو العين المنفردة بالانحراف والبعد ، إنما حكم على نفسه بالانحراف عن الاعتدال لاحتجابه بتعينه عليه ، فإن قرب البعيد منه إنما يكون لبعده ولهذا قال » :

« وقد علمت ان القرب والبعد أمران اضافيان ، فهما نسبتان لا وجود لهما في العين ، مع ثبوت أحكامهما في البعيد والقريب » .

« فإنهما مع كونهما معدومين في الأعيان يحكمان على الموجودات العينية بمعناهما .

« ألا ترى أن الشيطان في عـــين القرب لوجوده بالحق ، بعيد عن الله لانحرافه العيني .

« فقربه من أيوب نفس كونه بعيداً منحرفاً عن الاعتدال .

« فحكم على أيوب في عـــين القرب منه بالبعد عن الحق والانحراف عن الاعتدال .

ثم يقول الشيخ الأكبر :

« واعلم أن سر الله في أيوب الذي جعله عبرة لنا ، وكتاباً مسطوراً حالياً ، تقرؤه هذه الامة المحمدية لتعلم ما فيه ، فتلحق بصاحبه تشريفاً لها .

« فأثنى الله عليه ، أي على أيوب بالصبر ، مع دعائه في رفع الضر عنه .

« فعلمنا أن العبد اذا دعا الله في كشف الضر عنه لا يقدح في صبره .

« وأنه صابر ، وأنه نعم العبد ، كما قال — نعم العبد انه أواب —

« أي رجاع الى الله ، لا الى الأسباب .

« والحق يفعل عند ذلك بالسبب ، لأن العبد يستند اليه .

« إذ الاسباب المزيلة لأمر ما كثيرة ، والمسبب واحد العين .

« فرجوع العبد الى الواحد العين ، المزيل بالسبب ذلك الألم ، أولى من لرجوع الى سبب خاص ، ربما لا يوافق ذلك علم الله فيه .

« فيقول : ان الله لم يستجب لي .

« وهو ما دعاه ، وإنما جنح الى سبب خاص لم يقتضه الزمان ولا الوقت .

« فعمل أيوب بحكمة الله ، إذ كان نبيا ، لما علم أن الصبر الذي هو حبس النفس عن شكوى الطائفة » .

« أي المتقدمين من المشرقين من أهل التصوف ، القائلين بأن الصبر هو حبس النفس عن الشكوى مطلقاً » .

« وليس ذلك بحد الصبر عندنا .

« وإنما حده حبس النفس عن الشكوى لغير الله لا الى الله .

« فحجب الطائفة نظرهم في أن الشاكي يقدح بالشكوى في الرضا بالقضاء وليس كذلك .

« فان الرضا بالقضاء لا يقدح فيه الشكوى الى الله ، ولا الى غيره .

« وإنما يقدح في الرضا بالمقضي .

« ونحن ما خوطبنا بالرضا بالمقضي ، والضر هو المقضي ، ما هو عين القضاء » .

« إذ المقضي به أمر يقتضيه عين المقضي وحاله واستمداده ، والقضاء حكم الله بذلك ، وهما متغايران .

« فلا يلزم من الرضا بحكم الله الرضا بالمحكوم به ، فإنه مقتضى حقيقة العبد المقضى عليه لا مقتضى حكم الله » .

« وعلم أيوب ان في حبس النفس عن الشكوى الى الله في رفع الضر مقاومة القهر الالهي ، وهو جهل بالشخص اذا ابتلاه الله بما تتألم منه نفسه ، فلا يدعو الله في ازالة ذلك الأمر المؤلم » .

« بل ينبغي له عند المحقق أن يتضرع ويسأل الله ازالة ذلك عنه .

« فان ذلك ازالة عن جناب الله عند العارف صاحب الكشف .

« فان الله قد وصف نفسه بأنه يؤذى فقال — ان الذين يؤذون الله ورسوله — وأي أذى أعظم من أن يبتليك الله ببلاء عند غفلتك عنه ، أو عن مقام إلهي لا تعلمه ، لترجع اليه بالشكوى فيرفعه عنك ، فيصح الافتقار الذي هو حقيقتك » ؟ !

« باعتبار التعين الذي أنت به عبد » .

« فيرتفع عن الحق الأذى لسؤالك اياه في دفعه عنك ، إذ أنت صورته الظاهرة .

« كما جاع بعض العارفين فبكى .

« فقال له في ذلك من لا ذوق له في هذا الفن معاتباً له .

« فقال العارف : انما جوعني لأبكي .

« يقول : انما ابتلاني بالضر لأسأله في رفعه عني .

« وذلك لا يقدح في كوني صابراً .

« فعلمنا أن الصبر انما هو حبس النفس عن الشكوى لغير الله .

« وأعني بالغير وجهاً خاصاً من وجوه الله .

« وقد عين الحق وجهاً خاصاً من وجوه الله ، وهو المسمى وجه الهوية .

« فيدعوه من ذلك الوجه في رفع الضر عنه ، لا من الوجوه الأخر المسماة أسباباً .

« وليست إلا هو من حيث تفصيل الامر في نفسه » .

« قد مر أن لله تعالى في كل تعين وجهـــاً خاصاً ، فالهوية المتعينة بذلك التعين هي السبب .

« وغير العارف إنمـــا يتوجه إلى حجابية التمين لاحتجابه ويدعو له لدفع الضر .

« وكل متمين وجه من وجوه الله وسبب من الأسباب ، وهو وإن كان حقاً لكنه من حيث تعينه وجه وسبب وغير ، لا أنه أعرض في التوجه اليه عن الوجوه الأخر ، وقد يكون رافع الضر من جملتها ، فالذي يوجه اليه ليس إلا هو من حيث التفصيل ، لأنه من حيث أحدية الجمع هو هو .

« فهو لا هو من حيث الخصوصية .

« فالأواب هو الرجاع إلى الهوية الإلهية المطلقة الجـــامعة المحيطة بجميع الهويات المتعينة .

« فلا يوجه وجه وجهه إلا إلى السيد الصمد المطلق ، الذي تتوجه الوجوه كلها ، وأسندت الأسباب جميعاً اليه .

« ولا يتقيد بوجه خـــاص ، فقد لا يجيبك فيه لعلمه أن ما تسأله في وجه آخر .

« فإذا سألت حضرة جمع جميع الوجوه ، ووجهت وجهك نحو الأحـــد الصمد ، والوجه المطلق فقد أصبت » .

ثم يقول الشيخ الاكبر :

فالعارف لا يحجبه سؤاله هوية الحق في رفع الضر عنه عن أن تكون جميع الأسباب عينه من حيثية خاصة .

« هذا لا يلزم طريقته إلا الادباء من عباد الله الامناء على أسرار الله .

« فان لله أمناء لا يعرفهم إلا الله .

« ويعرف بعضهم بعضا .

« وقد نصحناك فاعمل .

« وإياه سبحانه فاسأل » .

« الهوية الحقانية التي سألها العارف هي التي عينهـــا الساعي بالخصوصية الإلهيـة .

« ولا يحتجب العارف بسؤال الخصوصية الإلهية ، عن أن تكون هي جميع الأسباب ، وجميع الأسباب عينها .

« ولا يلزم طريقة الخصوصية الإلهية إلا الأدباء من عبـــاد الله ، الأمناء على أسراره .

« فعليك بالسؤال من ذلك الوجه ، في كل قليل وكثير .

« وبالجزم بالإبة إيمانا وتصديقا ، فإن الله يقول — ادعوني أستجب لكم — ومنه التوفيق » .

فهرس

صفحة

صفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه بحار ... وأنوار ... قوله تعالى « إنا وجدناه صابراً . . نعم العبد ... إنه أواب » !!!

ما هي الحياة !... ما هو الانسان ؟ ... لماذا البلاء ؟!!

تحليل جديد لشخصية نبي الله ... أيوب عليه السلام ...

هل الجسد نقمة أم نعمة ؟!

لماذا تجربة أيوب ؟!

